دمـــــــــوع الخـــــــريف

قصص قصيرة

ربيـــــع ســـيد

إهـــــــداء

إلى كل من عرفت..

وعشت..

وتعاملت معهم من الأشقياء...

الراحة لا تكون إلا بعد انتهاء الحياة...

ربيـــــــــــــع ســـــــــيد

لمحـــــــــة

قد يشعر القارئ لتلك السطور أن من كتبها مقدم على الإنتحار أو أنه قد انتحر فعليا ولكن أحب أن أكون واقعيا إلى أبعد حد فى كتاباتى ،لماذا نهرب من الحقيقة الوحيدة فى حياتنا ؟ ألم يأتى علينا يوما لنموت ؟لا والله الموت هو الآتى لا محالة .

يمكننى أن أنهى بعض القصص الموجودة فى كتابى هذا نهاية سعيدة مفرحة ولكنى فضلا عن أن تلك القصص حقيقية إلا أن بعد تلك السعادة ماذا؟ خلود؟ لا بل الموت ولا شيئ سواه ولامهرب منه فسامحونى إن أتيت بالواقع كما هو بلا كذب أو تجمل.

ربيع ســـــــــيد

أحـــــــــلام الشـــــــــــوارع

"سأنال من دنيايا ما أريد فأنا من يختار حياته وأنا من يبذل قصارى الجهد حتى أجد ما أريد"

ضحك حتى بدت نواجذه ،وظهرت أسنانه لامعة كضوء نهار حينما سمع المحاضر يقول تلك الكلمات بالتلفاز القابع فوق أحد الأرفف بالمقهى المتواضع ،ضحك غير عابئ بما يعيش فيه من ألم وفقر وأسى .

غريبة هى هذه الدنيا ، من تعطيه لا تقف عند حد به ،ومن تعطيه ظهرها لا تديره مرة أخرى ،فمن ينعم برغد العيش هانئ ومن يعيش فى شظفها وتجاهلها له شقى،ختعت من وجهه ليس رهبة منه ولكن إعراضا منها ،عاش محمود فى هذه الدنيا تعس ،مهموم ،مكلوم ،ويتيم ،لم يعرف له أبا أو أما ولم يبحث عن أهله إلا فى أعين الناس يستجدى الرحمة ،ويطلب الحنين ،والرغيف أيضا .

من أى البلدان انت ؟ ومن أبوك ؟ومن أمك ،تلك الأسئلة التى لم يجد لها محمود إجابة سوى لست أدرى أما من ناحية عمله فهو يعمل فى أى مجال المهم أن يجد

قوت يومه بدلا من أن يستجدى الناس ،فكفاه أن يستجدى عيونهم للرفق به إنه حتى لا يعلم من ذا الذى أطلق عليه هذا الاسم .

أين يسكن ؟هو يملك مالا يملكه أحد على وجه البسيطة فهو يملك الشوارع ,والحدائق ،والمتنزهات ,والكبارى وماتحتها ،والنيل ،والجبال ، ومحطات القطار،والاتوبيس ،تلك ممتلكاته التى يجلس وينام ويأكل ويبول ويتغوط ويريح جسده المنهك بها ،أرأيتم غنى بهذا الشكل ؟؟؟ ،لا أظن ذلك .. لكنه يفتقد أشياءا لم يهبها الله له ومنها: المودة من الآخرين ،حِجرُ أمٍ يحتويه لتخلل أصابعها فى شعره ،حنانُ أبٍ يخاف عليه تارة ويوبخه أخرى و أخ يحنو عليه .. يتقاسم معه اللقمة يدافع عنه إن غار عليه أولى النعمة ،كم كان يرى وهو فى إحدى ممتلكاته من الحدائق أسرا تعيش فى رغد من العيش ,والحنان أيضا كم كان يحاول اللعب معهم حينما تجرى كُرتِهم بعيدا فيحملها إليهم وعيناه تصرخ فيهم أننى بشر ولكن ينكمش كل أخ فى حضن أخته مبتعدين عنه مزدرين إياه ، يراهم وقت غذائهم يقتطعون من طعامهم ليضعون الطعام كلٌ فى فم الآخر فيسيل لعابه ليس جوعا بقدر ما هو إحساس بعظمة اللحظة ، هو لا يذكر أن صافح أحدا مدى حياته ،فالأيدى فى حياته نوعان ،نوع يتقطع من فرط غسيل الأطباق فى المنطقة الخلفية للمطعم الذى يعمل فيه - تلك يديه - وأخرى تنزل على وجهه أوقفاه صفعا حينما يخطئ أوتخطئ الشرطة فى الزج به فى الحجز بتهمة التشرد ولقد تعمدت أن أقول تخطئ فالأصل تحمى من لا يجدون من يحميهم ،فليس من العدل فى شيئ أن تكون سببا فى أذى هذا أوذاك ثم تأتى لتسقط عليه جام غضبك،أعود إلى

صديقى فهو لم يتعامل نهائيا مع الأيدى الناعمة التى قد تحمل عنه عبء السنين ،ولكنها تحمله مالا يطيق من إهانات وألم فى النفس قبل الجسد،كم كان يتمنى أن

يجد من تلك الحياة المُدبرة عنه بعض المتع لكنما هى القصة المأساوية التى يُلقى فى غياباتها الفقير الشريد ،ولكنى أرى أن الفقير هو من يملك السعادة لنفسه دون أن يهبها للآخرين ويملك متاع الدنيا ولا يُغدق على غيره ممن حُرموا منه،ففى هذه الحالة إما أن يكون بخيلا وهذا فى حد ذاته فقرا وإما أن يكون لا يملك معنى العطاء وهذا هو الفقر المدقع ،كم حار صاحبى فى معرفة العِلات كعلة وجوده وحيدا ،وعلة إزدراء الناس له فلم يقف على الأسباب التي جعلته منبوذا ومطرودا ،سوى أنه ينضم للعديد من المشردين بجسده وحيدا بمشاعره ،كم كان يحلم أن يكون له منزل يؤويه وسرير دافئ يلم بقايا جسد النحيل الذي كلّ من الشقاء والتعب ، وأب وأم وأخوة يحتضنوه أحيانا ويتشاجرون معه أحيانا ، المهم أن يكون عضوا فى أسرة حتى وإن كان أرادها قاسون فالقسوة خير من التشرد حتى حينما رضي بالزهيد من الحياة وأراد استئجار دار للسكن كي يشعر ولو للحظات بالاستقرار أبى الناس حتى أن يسكنوه لأنه بلا هوية ،وبلا إرادة منه أصبح ضحية مجتمع ينظر إليه بدونية قميئة ،يُدحمسُ الليل عليه فيرتمى بين أحضان الحشائش متوسدا نعليه ملتحفا بالعراء ، ينظر للسماء المترامية وما بها من نجوم وأفلاك متسائل هل هناك شقي فى الحياة غيره ؟،و الذى يجعله كغيره من البشر أنه يحلم مثل من نام على حرير وإلتحف بريش النعام ،حلم ذات يوم أنه من أبناء الأغنياء وأن له أبا وأما وخدما وحشما وأصدقاء وحمام سباحة فى قصره الفاخر وبعد أن تناول إفطاره هم برفع الأذى عن جسده وقضي وطره من الماء ثم أخذ فى مداعبة كلبه يلهو ويلعب معه يتقاذفان الكرة ويلهوان إلى أن عض الكلب يده ،وكانت العضة التى آلمته هى مانقله من عالم الخيال إلى مرارة الحقيقة حيث صحا على كلب ضال قضم يده التى كانت تمسك بقطعة من طعام كان قد تركها فى يديه ونام ليبحر فى أحلامه،ءارأيتم حتى أحلامه قصيرة لا تكاد تكتمل ،رأى الوقت متأخرا فمضى فى الطرقات يلتمس سبيله

إلى عمله بالمطعم وبينما يحدث نفسه عما رأى بالحلم إذ بعربة فارهة لا تسرح بخيالك أيها القارئ فما جاءت العربة لتجعله يحقق الأحلام إنما أتته لتنهى مأساته مع الحياة التى بخلت عليه حتى بإتمام حلمه لا بتحقيقه.

دمعـــــة على وتـــــر

ضج البيت بالفرح والسعادة حينما صرخت الأم صرخة عرف الجميع منها أن آن الأوان لكى تضع حملها ،بكاء وعويل ثم فرحة بقدوم المولود ثم ألم فى تربيته ،ثم حزن على مرضه ،ثم كد فى السهر على راحته لاستذكار دروسه ثم فرحة بنجاحه ثم حزنا لمغادرته للبحث عن عمل وفرحة أخرى بالعودة وفرحة أكبر بزواجه ثم ألما لإكتشاف الداء فيه ثم حزنا على فراقه للحياة ثم نسيانه ليأتى غيره فنعيش معه نفس ماعشنا مع سابقه تلك هى الصيغة المختصرة لشرح دنيانا التى نشقى بها ونشقى فيها وونشقى منها ما أتعسها حياة خلقنا لنشقى ،أعود إلى منزل عمى طاهر الرجل الذى جعل الله له من اسمه نصيبا فهو لايعرف حقا سوى الطهر فى أبهى صوره ،لا يحمل غلا ولا ضغينة لأحد ،ولا يدرى ما معنى البكاء على ما قد فات فالماضى والحاضر والمستقبل كلهم بيد من لا يغفل ولا ينام فلنغفل نحن وننام فإن الحارس على مقاديرنا يعى إدارتها كما لا يعى أحد ذلك لأن صانع الأشياء أدرى بها من غيره ومعاذ الله أن يكون له ندا أو شبيها ،أعود للبيت لأخبركم عما حدث به لحظة أن صرخت حفيظة لتضع المولود الرابع لها ،ولكن حينما تنفس النفس الأول

له فى الحياة كانت أمه قد لفظت أخر أنفاسها ، ما أتعس تلك اللحظة التى لا يعرف الإنسان فيها أيضحك أم يبكى ؟

ومرت الأيام عصيبة على الرجل الذى أصيب فى شريكة كفاحه ،وما زاد الأمر سوءا ذلك الزائر الجديد الذى جاء يحمل الحزن فى أولى صرخاته فى الحياة فلابد له من أحد يرعاه فلم يتردد الأب كثيرا فقد قرر الزواج من أرملة لها نفس ظروفه غير أنها لا تملك أطفالا فقد توفى زوجها قبل ولادتها وطفلها مات فى بطنها من حزنها على زوجها ،فقد وجد الإثنان بغيتهما فهو يريد حاضنة للطفل وهى تريد سكنا لها وطفلا تهدهده يبكى فيحزنها ، يفرح فيغمر النفوس بالأفراح ،وتزوجها الرجل وكانت تعامل أمين –وهذا اسمه- معاملة أم لا تدعه يبكى لحظة واحدة قد تهمل واجباتها تجاه زوجها وأولاده الآخرين لكنها لا تهمل البتة فى حق امين فهى تراه اللبنة التى اكملت تمام البنيان ، إلى أن حدث ما لم تتوقعه أن تحركت فى احشائها نطفة طفل جديد ولكن هذه المرة هو إبنها وتذكرت حينها كيف قضت مع زوجها السابق العقود الطوال دونما أن تتحرك مثل هذه النطف إلى أن جاء من مات فى احشائها كمدا على من مات ، بدأ البساط ينسحب من تحت أرجل صاحبنا، فبعد أن كان المدلل أصبح المقهور المنهور ، وكلما اراد ان يحتضنها ضنت بذلك قائلة له ابتعد عن بطنى فإنك تؤلمنى أقسى لحظات الحياة أن يعاملك من تحب معاملة من لا يطيق رؤيتك بل ما زاد الطين بللا أن صاحبنا مرض وإشتد عليه المرض ولم تهتم به إلى أن اصيب بحمى روماتيزمية أثرت على قلبه الصغير،فاصيب بانسداد فى صمامات القلب ،وجاء من ينتظرونه أخ صغير أطاح بكل ما لأمين من صلاحيات وجعله كالملك المخلوع بلا قصر ولا عرش ولا حتى خدم أوحشم ،صار مطرودا من الجنة التى عاش فيها لعامين تركته دون أن يأكل أو يستحم بعد أن كان يُفعل له كل

هذا قبل ان يشعر بغيابه أو الحاجة إليه ،ولكن الخطأ فى نظرى يعود إلى أمين ذاته فلقد طلب الحنان والمودة من غدير واحد ولم يلتفت إلى أغادير بديلة وذلك ما أرشدته إليه طفولته ،أعْرُج بكم إلى سنوات مضت من عمره كبر أمين وكبرت معه مشاعره بالبغض على تلك الحياة التى لا تهبه سوى القليل وكبر معه أيضا إحساسه بالألم جراء مرضه اللعين وقلة إمكانات الوالد الذى ألقى عليه الزمن بعض من التجاعيد فى وجهه ،وشيئ من الوهن فى أعضائه، وخارت قواه حتى أصبح لا يقدر على العمل ،وأضاف بذلك هما جديدا إلى هموم صاحبنا ألا وهو أن مرضه أصبح عائقا أمام عمله فهو ماينفك أن يعمل لأكثر من ساعة إلا ويشعر بجهد وألم ، هم على هم ، وضغث على إبالة ، وماء على الطين كى يزداد بللا،طرق كل أبواب المستشفيات المجانية لعمل أى شيئ ولكن دون جدوى كأنما المشافى جُعلت خصيصا لمن يملكون ..حتى الشفاء أصبح مقصورا على أولى المال أما من لا مال لهم فلا صحة لهم ، وحتى لا أسهب فى وصف المآسى التى تعرض لها صاحبى أذكر أنه قد أراد لنفسه مرتعا يميل فيه إلى الهدوء والسكينة ،وأيضا الهروب من الواقع المرير ،فوقع فى حبها كانت هى الإنسانة الوحيدة التى احتضنته بحنان بعدما زجره الجميع ،كانت هى الوسادة التى أراح عليها رأسه المنهك من وعثاء الألم ،حينما كانت تتخلل أصابعها خصلات شعره يشعر أنه معافى لا يعروه الألم وهو معها ، يكره الليل لأنه يحجبها عنه فالليل يحمل فى سمائه قمرا غير قمر صاحبى فقمره يخرج مع الشمس ويغرب من حيث غربت .

ذات يوم وفى ليالى الألم قام من نومه والسعال يطارده حتى أن الدم أنسال من فمه فى إنذار قوى بقرب إنقضاء الأجل قام لا يرى شيئا سوى باب المرحاض الكائن فى أخر البهو وبينما هو فى آلامه وزيارة لم تكن فى الحسبان لضيف ينذر بالموت إذ به

يدفع باب المرحاض الموصد ويجرى نحو حوض المياه لا يدرى ما يحدث ولا يدرى من كان بالداخل إلا وتعالت الصرخات فقد كانت زوجة أبيه تستحم وتوالت الصرخات واستيقظ الأب على مشهد زوجته عارية وإبنه يحاول كتم فمها فجمع قوته وانهال على ابنه ضربا دون أن يدرى ما حدث ،ثم استطرد قائلا :اخرج من بيتى أيها اللعين فتلك الدار للأخيار كانت ولا مكان فيها لمبتدعى الرذيلة، فخرج مهرولا من ضربات أبيه لا يدرى إلى أين يذهب ،حتى لحظة الألم الرهيبة لايجد من يحنو إليه بل تقف الظروف حائلا وسدا منيعا أمام أن يشعر به أحد .

أذكر حينما جاءنى والدموع تتساقط على وجنتيه،وهو يحكى ما حدث فى تلك الليلة وهدّأت من روعه ثم مهدت له مهدا لينام وجاء الصباح ليرى فيه من جعلت لحياته طعما ولونا ورأها فنسى ماكان بالأمس من أسى وكانت كالماء الذى زاد الطين بللا فقد أخبرته أنها على وشك الزواج فقد تقدم أحدهم ووافق عليه الجميع وهى لا تستطيع الرفض ،وأنا هكذا قال فردت: ألا تعلم أن أبى قال أنك لو أخر رجل بالدنيا لن أتزوجك .

لم يسأل عن السبب ولكنه يعلم تمام العلم أن للسعادة أناس لا يشبهونه ،وأن السعادة لا تأتى مع المرض ،ولا تأتى مع الضياع ولا التشرد فقد حرم حنان الأم وعطف الأب واحترام من حوله وحبيبته التى لم تستمر أكثر من عمر وردة إذا ما فائدة الحياة عاد إلىّ لا يقدر على رفع قدميه وقال فى ألم وحسرة ليتها تنتهى تلك الحياة التى لا أرى منها سوى الغث ونام نومة ما قام بعدها إلا إلى قبره حيث سيرى هناك مالم يراه فى تلك الدنيا التى تخزينا أكثر من أن تنصرنا سيجد الحنان ممن خلق الحنان ،وسيجد الحب ممن خلق الحب وسيجد كل الجمال ممن خلق الجمال.

جالست صاحبته بعد عام من وفاته ، حدثتها عنه ، كانت تهدهد طفلتها فلم تذكر عنه سوى أنه كان شخصا ودودا، فهل كان حبا ذاك الذى أضناه أم كان وهما ، ولحنا حزينا على وتر الحياة .

ليـل القــرى

فى قريتى الهاجعة التى تمر أيامها فى رتابة وملل يصحو الجميع مبكرا إلى حقولهم تسبقهم ماشيتهم ، يتحينون الفرص للذهاب إلى الحقول فى صباحات الشتاء المعبأة بالبرد والندى الذى تكاد فى لمسك له أن تتجمد ، يقصون الحشائش للبهائم ثم يركننون إلى بعض من أشعة الشمس كى يشعرون بالدفء ، لا جديد لديهم سوى أعياد الحصاد فى إبريل حين تتعرى الأرض من كل أخضر فيها استعدادا لزراعة أخرى وشيكة ، هدوء يعم أطراف البلاد اللهم إلا بعض من ثغاء الماشية ،روح طيبة تعم الحياة بشيئ من الألفة ، فحينما تمر بأحدهم وهو يحتسى فنجانا من الشاى كى يمنح جسده دفئا لا يتركك إلا أن تتقاسم معه كوب الشاى ، كل المشكلات لا تنفك إلا ان تكون محصولا لم يؤت ثماره او زراعة فسدت وسرعان مايضمد جرحه حين يقول بلسانه أن الزبد يذهب جفاءا ويبقى ما ينفع الناس لله ما اخذ وله ماتبقى ، تلك هى الحياة البكر التى تخلو من المعضلات ، أذكر حين أتى عمى محمد – هكذا كنا نناديه- رافى الأحذية إلى قريتنا وكيف إلتف حوله العديدين من فقراء قريتنا لإصلاح بعض ما يحملهم من أحذية ، قد عفا عنها الزمن ولكنها فرصة ليضفى على الحذاء مسحة من جمال ، مقابل الخمسة قروش كان محمد يهذب الأحذية ، ولكنه لم يكن ممن يأتون من بلد مجاور بل إنه بلا وطن فتارة يخبرنا انه من أعالى الصعيد وأخرى يؤكد فيها انه من محافظات بحرى ولكنى لا أرى له سوى عينين جاحظتين يملؤنى منهم الرعب فاحمرار العينين وسواد الأماميات من الأسنان وشعره الكثيف الذى ينظر إلىّ من خلف طاقية تظهر من شعره أكثر مما تخفى فقد

كان ما بها من ثقوب اشبه بشبكة الصيد يخرج شعره منها كافرا بنواميس النظام والهندمة .

جلست إليه كثيرا حتى أنه فى ذات مرة قال لى أليس لدى أحدكم مسكنا للإيجار كى ارتمى فيه بدلا من كونى انام بالشارع إلى جوار أشيائى تلك ، ومن الجدير بالذكر أن قريتنا ليس بها مثل هذا النوع من العقارات فكل يلتزم كوخه ولا بيوت لدينا للإيجار ، فعرضت الفكرة على بعض من يملكون دارين أو اكثر فهيأله حجرة ليمكث فيها بدلا من الفضاء الذى يحيا به ، تمر الايام ومحمد فى مسكنه، وذات ليلة إذ ببعض المتسكعين ممن لا حقل لهم كى يصحو مبكرا لأجله يذهب إلى حجرة محمد ليتسامروا ليلا ، وكأنما ثمة اتفاق دار أو سر افتضح ثم ما فتأ ان انتشر نبا الساحر الهمام والدجال المتمكن الذى يستطيع بجرة قلم واحدة ان يفعل الأفاعيل من زواج وطلاق ومحبة وفك اسحار ، وما أتاه أحد مهما كان لديه من حياة مستقيمة إلا خبّره بأن هناك أحد قد فعل من أجله سحرا إما لتفريق بينه وبين زوجه أو بشجار بينه وبين أخوته .

وانتشر خبر محمد بين البلاد المجاورة حتى أن الوفود كانت تأتى من شتى بقاع الارض لنيل البركة من صاحبنا ، وتبدل حال القرية إلى أسوأ ما كان حيث أقنع محمد هذا الجميع ان البراءة التى نراها فى أعين من حولنا إنما هى قناع يوارى خلفه سواءات الأفاعيل وأن من تراه صديقك هو ألد الاعداء لديك ، فصار كل من فى البلدة الصغيرة يحترز ممن حوله ،استطاع ان يزرع البغضاء والكراهية فى قلوب من بالقرية .

أذكر أنه قد جاء إليه أحدهم كى ينال منه مايقربه لحبيبته التى فقد كل طريق للوصول إليها فأشار إليه بسحر ما يوضع فى طريقها فتخطو عليه فتصير كالخاتم فى

اصبعه فما كان من صاحبنا إلا ان تلمس الطريق إلى دارها ليلا ليحفر تحت عتبة دارها ليخفى تميمته حتى تخطو عليها فتصير إليه راغمة فأحس اباها بصوته فى الخارج فخرج عليه وكانت المشكلة التى تحدثت عنها البلدة كثيرا ، وصارت الإنقسامات والأحزاب تتكاثر فذاك مع غيره يختصمون هذا والآخر مع عشيرته يختصم ذاك وتشتت الشمل بين مؤيد لما يدور ومعارض له .

تفرغ الناس لمشكلاتهم تاركين كل مصالحهم وما اعتادو عليه من العمل ، وفى يوم ما قرر الحكماء من أهل البلدة الذين رأوا ما آلت إليه حالهم التخلص ممن عكر عليهم صفو الحياة ونقائها فاجتمعوا ليبتوا فى أمره واتفقوا على إحراق المنزل بمافيه، منهم من رأها ظلما له فما المانع أن يطرد من البلد فرد آخر أنه سيمارس ما مارس فينا مع غيرنا ولا نضمن ذهاب أهلينا إليه فى أى بلد سكن ،ومنهم من رأى أن فى حرقه لعنة قد تصب على البلد مما للرجل من علاقات مع الجن قد يسلطهم على القرية فتذيقنا الويلات وبعد كثير نقاش وجذب ودفع إلتأم المجلس على أن يحرقوه بمنزله ، وأفكاره وأهازيجه التى تتردد على مسامع المرضى من أهل القرية ، وخرج الناس إليه فرادى وجماعات إلى أن وصلوا داره فأضرموا النار بها، وإنتهت حياته ولم تنتهى الأساطير من بعده فمنهم من رآه فى المقابر ليلا، ومنهم من رآه يحبو على شواطئ الترع والمصارف ، ومنهم من رآه فى الحقول يحصد الزرع ليلا، ومنهم من رآه يجرى فى الشوارع عاريا والنار تشتعل به ، كل رأس جاد بما تخيل ،ومع تصارع الأيام عادت الحياة كما كانت غير أن النفوس قد حملت من بعضها أضغانا ، فلكم من ليلات نام فيها الأخ وهو يحمل شيئا ما فى صدره ناحية أخيه ، وهكذا قريتى كل جديد لديها يضرها أكثر مما ينفعها .

دمـوع الخـــريف

السماء تهطل بالمطر الغزير و الأشجار ما حملت فوقها إلا فروعا خاوية من الأوراق ،لا أحد بالشارع ،الكل يهرب من زخات المطر التى تضرب كأسواط على الأجساد، تبدو الحياة بلا حياة إلا ذلك الشاب الذى يسرع الخطى كى يحتمى بجدران الحوائط من غزارة المطر الباكى على ما تولى من الصيف ذو السماء الصافية وكأن السماء تنوح على أيامها الخوالى ،دلف صاحبنا الشارع متجها إلى سكنه ،بوجهه الشاحب ،وقوامه النحيف ، وشعره المتهدل ،وبينما هو كذلك إذ به يسمع صوت نحيب ، وبكاء فالتفت إلى مصدر الصوت إذ به يرى شبحا لإمرأة تجلس شبه عارية تحت شجرة تشبهها لا يختلف الإثنان عن بعضهما فالكل خل أوخُلِعت عنه ساترته من أوراق أوملابس .

همّ بالإتجاه إليها لكن شيئا ما جعله يبتعد وعلا النحيب وبعد أن ابتعد قليلا لامه ضميره على أن يترك هذه المرأة فى ذلك البرد القارس بمفردها ، فعاد أدراجه إليها ولما اقترب منها جفلت منه وارتعدت ثم أجهشت بالبكاء فسألها عن سبب وجودها هنا على تلك الهيئة فنظرت إليه نظرة هلع ولم تجبه فعاودها السؤال مرة أخرى فلم ترد أيضا فهمّ بالذهاب لولا أنها قالت : أكاد أتجمد أليس بوسعك أن تقرضنى ذاك المعطف وتمضى ؟

فقال لها وهو ينزع معطفه دون أدنى تفكير : خذيه واحتمى بالجدار أو أدخلى إلى أى مدخل من تلك البنايات للاحتماء من المطر فردت بقسوة : مالك ومالى إن أردت معطفك خذه أنا لا أريد عطفكم أيها الرجال فما وجدت العطف منكم إلا لنيل بغية أوللظفر بليلة دافئة وفى النهاية تنامون فى الدفء وتلقون بى للشارع ملاذى منذ المهد ومأواى فى الكبر ولكن قسوة المطر أحن علىّ من دفئكم المزعوم ، حارت عيناى وقلبى على رجل لا يريد سوى الحب فلم أجد الكل يعطى من أجل أن يأخذ ولكن أنت لا يوجد عندى ما أعطيه لك مقابل معطفك.

لم تنبس شفتاه بكلمة واحدة وكأنما الكلمات كالسهام المتلاحقة التى ما أتخذ منها حرزا،ثم وكزته ليرد فتمتم بشفاه مرتعشة وكلمات متقطعة :

أنا لا أريد شيئا إن ما دفعنى لاقراضك المعطف هو خوفى عليك ليس إلا ولست أنا من يريد من النساء شيئا لأنى أراهم فقط ،لا أعرف عنهم سوى أنهم يختلفون عنا فى الجنس والنوع والشكل العام والطباع ،والعمل أيضا فنحن من خلق للشقاء كى نلبى إحتياجاتهم إن تزوجناهم ، ومن دون الزواج نلبى إحتياجات أمهاتنا وأخواتنا،ولكنى راضٍ بذلك غير حانق عليه.

ولكن دعينا من كل ذلك واسمحى لى أن أدعوكِ إلى احتساء بعض من النبيذ فى ذلك الملهى ، وأحست ناحيته ببعض من الأمان الذى لم تحسه مع من سبق أن تعرفت عليهم ،فدلفا بالممر إلى أن دخلا الملهى وتجاذبا أطراف الحديث وسألها عن سبب تواجدها بالشارع فأجابت أن أحدهم قد تزوجها دون علم زوجته وهى وافقت على ذلك لأنها بلا مأوى ، فمأواها الوحيد هو الشارع والحدائق وتعرفت عليه بإحدى المطاعم ،وبعدالزواج علمت زوجته بالخبر وفرضت عليه تسريحى واستجاب لطلبها بل إنه اتهمنى بالسرقة وتم إلقائى بالسجن ثلاث سنوات ثم

خرجت إلى منزلى الواسع وبينما أنا نائمة فى حضن أيكتى إذ ببعض الشباب السكارى يطاردننى وينهالون على كمن ينهال على الطعام من بعد جوع ألّم به،وقاموا باغتصابى ثم تركونى كما رأيتنى .

تأفف صاحبنا من هول ما سمع ثم نظر فى ساعته ووجه إليها كلماته أنه لابد أن يمضى لأن الوقت قد تأخر وعليه أن يخلد للنوم كى يستطيع أن يستيقظ مبكرا للعمل ، وكان فى عينيه رغبة ملحة أن يدعوها إلى الذهاب معه إلى مسكنه ولكنه خشى أن تنهره ،وكان يخالجها نفس الشعور فهى لا تريد الآن سوى منطقة دفء تزيح عنها ما عانته من ويلات الشتاء القاسى ، وهى الآن لا تخاف فليس لديها ما تخاف عليه فكل شيئ فى نظرها انتهى لا بكاء على شيئ ،وهمّ بالمضى ولكنها استوقفته بقولتها :هل ستضع نفسك ضمن من وثقت بهم فخانونى أم أنك رجل مختلف ؟

فاصطحبها إلى مسكنه المتواضع ، وباتت ليلتها بين أشلاء مسكن حيث الملابس ملقاة فى كل ركن من أركانه ، نام هو على الأرض تاركا لها المخدع البالى ،نامت ليلة لم تنم مثلها منذ عهد بعيد ،نامت بلا خوف يداهمها ،بلا أذى ممن حولها ،فالغرفة ساكنة كسكون مالكها ،لا شيئ سوى الراحة التى أثقلت أجفانها ،واستيقظت فلم تجد منه سوى ورقة وضعت على منضدة تافهة فى أحد اركان الحجرة مكتوب فيها نهار سعيد عليك ستجدين الإفطار فى الثلاجة وهناك بعض النقود على الأريكة إن احتجت شيئا ، فإن تعطفت على بالمكوث حتى الليل فحضرى لنا عشاءا وإن اردت الذهاب فذاك المبلغ البسيط قد يعينك على قضاء الحاجة ليومين ،وهذا ما املكه اليوم .

حارت المرأة فى أمر ذلك الرجل وعجبت من وجود نوع كمثله فى هذه الأيام فهولا يريد منها شيئا ،وقامت نشيطة وقد عقدت نيتها ان تبيت لليلة أخرى ،فأضافت إلى المسكن لمسة أنثوية جعلت فيه نضارة لم تكن فيه من قبل ،ولما ارخى الليل سدوله جلست فى انتظاره وقد أعدت الشيئ اليسير من الطعام ،وفكرت مليا حين رأت نفسها فى حال تلبس فهى تنتظره نعم تنتظره ،بل إنها تشتاق لدخوله الحجرة الآن ، ما سر ذلك الإهتمام به لابد ألا يحدث ذلك قالتها لنفسها حين شعرت بتأخره ولكنها لم تتمكن من الشعور برتابة الوقت ومللله وتباطؤ عقارب الساعة عن المضى وفجأة دق جرس الباب ثم أحست بالباب يفتح ،ودلف الشاب من خلاله منفرج الأسارير وهى على نفس التهلل فقال : ظننت أنك مضيت ولكن إحساسا ما جعلنى مطمئن أنك هنا،فقالت :وأنا أيضا

ترددت كتيرا بين المضى والمكوث ولكن شيئا ما منعنى من الرحيل ،واندهش مما رأى فى حجرته من ترتيب وتنميق ،وأردف قائلا : تواصلا مع ما قد ذكرت فالغريب أننى اليوم وعلى غير عادتى أحسب الدقائق المتبقية حتى أصل إلى مسكنى ولم يراودنى الحنين إلى البارات أو الحانات التى اعتدت ارتيادها يبدو أننى وجدت ضالتى فيك فأومأت برأسها كأنها تؤكد له كلماته .

وكانت تلك بداية لأيام من السعادة والحب دون اللجوء إلى الأطماع الحيوانية التى اعتادت صاحبتنا أن ترأها فى أعين من سبقوه من أولى التجارب القاسية معها،وفى يوم ميلادها قام مبكرا قبل أن تصحو تاركا لها رسالة فيها كل عام وأنت أحب إلى من الدنيا وما فيها حضرى نفسك للإحتفال حتى آتى بمستلزمات الحفل وسوف يكون أجمل عيد ميلاد لأجمل زهرة نورت حياتى ،فقامت فرحة سعيدة بعد أن قرأت السطور وارتدت احلى ما أشترى لها من ملابس لتنتظر قدومه

،سوف لن أترك كلمة اليوم كى اقولها له بل إن كلمات كل اللغات لاتستطيع وصف ماأنا فيه من ولع بهذا الرجل ،اليوم ولاول مرة سوف آخذه بين أحضانى وأقبله قبلة يملؤها الحب والشوق والحبور هكذا قالت فى نفسها وهى فى إنتظار صاحبى ولكن الانتظار طال والصبر انتهى من عندها وحل مكانه القلق إلى أن دق جرس الباب وانتظرت دخوله فلم يدخل ودق جرس الباب مرة أخرى ودق معه القلق فى جنباتهاوفتحت الباب باندفاع ووجدت شخصا يسألها أهذا مسكن ديفيد فقالت : نعم هو فقال لها الرجل : يؤسفنى أن أبلغك أنه عند مروره بالشارع صدمته سيارة مسرعة ولم نتمكن من إسعافه وفارق الحياة ولولا بطاقة الهوية تلك ما كنت عرفت لا اسمه ولا .....

ولم تتمكن قدماها على حملها فخرت مغشى عليها وبعد أن أفيقت إنهارت فى بكاء مرير وجرت مهرولة إلى الشوارع لم تجد لها موئلا إلا تحت أيكة فى ظلمة ليل شديد البرودة لتبكى مرة أخرى فى ليل الخريف .

عجيبة هى تلك الدنيا حينما تبخل على أحد فهى تحرمه ممن يعيش من أجلهم وتتركه وحيدا يعانى الويلات جراء فعلتها.

نهـــــــر التعاســـــــــــة

صحا من نومه متثاقل الأجفان ،لايقوى على حمل جسده من على الحصير البالى الذى اتخذه فراشا وتوسد نعليه بعد يوم من الشقاء ،فلقد كان الأمس هو اول أيام عمله فى القاهرة فقد أتى من حضن الصعيد حيث الخضرة والمياه والحقول والترع والظل الظليل والمئذنة القديمة ،وإجتماع الناس عند المسجد العتيق كأعمارهم ووجوههم التى أضافت لها السنين خبرة وتجاعيد أيضا،كم كان يجلس بين أيديهم ليسمع منهم حكايا الزمان الجميل حيث المودة والحب والإيثار وكل جميل على أرض البسيطة ،لكم اشتاق لبلدته وهو لم يتم يوما واحدا فى البلدة التى تعامله معاملة الغرباء ،وجل ما يشغل تفكيره الحب الذى غزا حياته على حين فجأة ،غصة فى الحلق وشوكة فى القلب ذاك البعاد الذى يتذوقه لأول مرة ،وألم ومرارة مفارقة الأحباب خاصة وإن كان إلزاما لا رغبة منه فى البعاد ،ولكن آن الأوان أن يتحمل المسؤولية عن عاتق أبيه خفير الدرك الذى يتقاضى مبلغا زهيدا لايكفى لإطعامه هو وأخوته البنات فلابد من تقاسم الإلتزامات حتى تمضى الحياة بشيئ من اليسر،أقول غالب مابه من لواعج الشوق إلى قريته وأهله ومن يهوى وقام إلى العمل الشاق وقابله من على شاكلته من العاملين بفظاظة دائما ما يعامل بها الغريب الذى جاء ليعمل الكل حذر منه والكل يخشى أخلاقه ،لكنه كان ودودا لا تنفك شفتاه

أن تبتسم فى كل حين،مضى يومه الأول عاديا حاول من خلاله وضع أساسيات صداقات قد تهوّن عليه وعثاء الغربة التى يجربها للمرة الأولى ،تعرّف على حامد الذى يعمل نفس عمله ،تسامرا فى حكاياتهم عن بلدانهم وأهليهم ومشكلاتهم وحلولها ،وجد فيه بعض العزاء عن المفارقة فالصديق هو الشخص الوحيد الذى تجد نفسك معه حين تنتهى من ذاكرة من حولك أو تقصى المسافات قربكم ،وبدأت العلاقات أكثر انتشارا من حامد إلى وليد ثم أحمد ثم بيشوى الكل واحد فى حصد لقمة العيش مع إختلاف شخصياتهم وبلدانهم ،نهاية القول أن صاحبنا الذى لم أذكر اسمه حتى الآن وأعذرنى سيدى القارئ من مُحى اسمه من تاريخ الحياة إلا ممن لهم معه ذكرى لا يمكن أن تحييه تلك السطور إلا فى ذكر بعض من مواقف حياته ،المهم أن صاحبنا هذا قد تأقلم مع الوضع وأعتاد الغربة ولكن قلبه مازال يدق باسم بهية ،فشط به الحنين إليها حيث أن الشهر الأول قد انصرم ،فأشار إليه المقربون من أصدقائه الجدد أن يستقل القطار إلى بلده فى إجازة قصيرة ليرى من اشتاق القلب قبل العين لرؤياهم فإستأذن المهندس فأذن له.

****

- ها من هناك

صاح بها عمى منصور خفير الدرك ،الذى بدا على ملامحه علامات الشيخوخة يحمل على كتفه بندقية قديمه لم يذكر انه استعملها فى يوم من الأيام طيلة حياته ،سوى أن يحملها محزم بها كتفه ليلا ،مضى فى سكون الليل والقرية هاجعة لاتكاد ترى فيها أى وجه للحياة اللهم إلا بعض من الكلاب التى تعوى ،وصوت الضفادع فى الترع،بيوت لا تعلو سوى لطابق واحد ومسطحة بأعواد الذرة الجافة ،وأضواء شحيحة تخرج من تحت الأبواب التى قد مات أهليها بداخلها ،من شدة تعبهم

ومشقة تحملهم للعناء منحر الظهيرة والعمل فى أرض العمدة مقابل الغذاء ناموا كالقتلى ،وعلى حين فجأة ظهر شبح إنسان قادم من بعيد فصاح منصور مرة أخرى

- ها مين هناك

فرد الشبح بصوت أنثوى:-بهية أنا بهية يا عمى منصور .

- ايه اللى مأخرك لحد دلوقت؟

- العمدة جايلو ضيوف بكرة وكنت بروّق الدوار .

- طيب آجى أوصلك ؟

- لا ربنا يخليك .

وانقضى الحوار على هذه الحالة ،أستطيع الآن ان أمضى بك عزيزى القارئ حيث يمضى منصور ولكنى أرى ان من الأفضل أن نفترع حياة تلك الشقية التى ملكت اسما كطلعتها وحروفا عكس ماتحيا فهى من رحم الفقر والبؤس جاءت ولدت من أب قعيد كفيف قد أعياه التعب وأضناه الشقاء والخدمة عند طاغية البلد أقصد عمدتها الذى سام الفقراء سوء العذاب بسخرتهم فى أرضه ولم يكتف بذلك بل جعل من أبنائهم عبيدا تحت قدميه ،دلفت الفتاة إلى درب ضيق متشح الظلمة والسواد ،ثم ولجت بيتا هو أشبه بالكوخ يرقد خلفه كومة من اللحم مكومة عند طرف الباب ،تنور وسقف يتدلى منه (البوص)بعض أعواد الذرة الجافة وقد لطخها سواد الدخان عند اشعال التنور ،ينام فوقه –التنور- ثلاثة أطفال وامرأة .

- تأخرت قوى يا بنتى .قالها الأب النائم إلى جوار الباب

- إمتى ربنا يتوب علينا من الهم ده ،بكرة جاى المأمور والحاشية بتاعته عند العمدة وكنت بكنس الدوار وبلم الحطب عشان الخبيز ،هذا ما نطقت به ووارت الكثير مما حدث ،شيئ ما بين أضلاعها لا تستطيع تحمله ،تكره الدنيا التى جعلتها فقيرة وكل شيئ فيها مستباح ،فقوتها لغيرها وألمها هو الوحيد الذى

تستأثر به لنفسها ،حتى أغلى ماتملك الفقيرة وهو الكرامة والشرف يداسون تحت بلاط صاحب العزة ،فما أحقر تلك الحياة التى يريد فيها الغنى كل شيئ له لا لغيره حتى مسحة الجمال التى رزقها الله بها لايدعونها برونقها لكنهم يتبادلون القطف والشم فيها ،عاودت ما تعرضت له من انتهاك من قبل العمدة والمحيطين به من لاحسى حذائه ابتداءا من الخفر وحتى السايس والكلاف لقد أصبحت مستخدمة من الجميع رغم أنفها .

ليت أن الحياة تنتهى وتذهب إلى من يرحم ،نامت من التعب والفكر ليولد يوم جديد فى شمسه متكررة مآسيه.

****

وعلى الطرف الآخر قام صاحبنا متثاقل الأجفان إلى عمله وطيف بهية ما زال يراود أجفانه ،فعقد نيته أن يعود أدراجه إلى بلدته كيما يصارح أباه برغبته الزواج من بهية وهو يرى ألا مانع فى ذلك فلكم تشدق والده باسمها وتعاطفه الشديد معها داعيا أن يرزقها الله بمن يخفف عنها ما تعانيه من مشقة فى دوار العمدة الطاغية , قابل المهندس واستأذنه بالمضى إلى بلدته ولم يمانع الآخر من اعطائه أجازة وخفق قلبه بل استقل القطار قبله إلى البلدة وحينما وصل وجد أمه أمام الدار تنبش كالدجاجة

فى شعر ابنتها ،قبل يديها ودلف إلى المنزل وهرولت هى خلفه سألته عن أخباره فأجاب بالخير،وتبادل الجميع الأشواق

والقبلات والسؤال عن الحال والجواب عنه وهو يحارب نفسه لطرح الموضوع الذى جاء من أجله ،ورأى ألا فكاك منه فعبر إلى الحديث عما أراد مباشرة

- بصراحة أنا عايز اتجوز .

- وماله يا ابنى دى اللحظة اللى احنا مستنينها من زمان ،ورسيت على مين؟

- بهية...

وسقطت الكلمة على رأس أبيه كالصاعقة وتصارعت المشاهد فى عقله فتذكر يوم أن تطفل على مابقى من مائدة العمدة وضيوفه وأخذ فتاتهم من الطعام والخمر والمكيفات التى لعبت بعقله حتى سار يتمايل يمنة ويسرة ،وكيف أنه فى تلك الليلة المشئومة هجم بوحشية غاب عنها العقل على بهية التى كانت ساهرة ببيت العمدة للقام على خدمة الخراف الذين يجلسون مع العمدة لا لشيئ سوى لتعبئة المعين ،وكيف أنها قاومته ولكنه كالمجنون أصر على النيل منها حتى لم تجد منه تقية فانصاعت كالمأسورة لما يريد وكانى بها الآن وهى تقاومه ولاتستطيع حتى أنها وجدت نفسها إما الرضا رغما وإما الرحيل صمتا ولكن بعد الرحيل لا أم

سترحمها من الكلمات ولا أب سيسكت عن الآهات ،أنا لا أبرر ما فعلت بقدر ما أحاول إختلاق العذر لمن قدر عليها الناس وما قدرت على

أحد ،ثم أن الحياة سلبتها كل شيئ فهل تظن أنها ستبقى على ما بقى ،المهم أنه قضى ما كان يريد،تصارعت فيه الاقدامات والاحجامات فكيف لفتاة كانت تحته أن تكون زوجة ابنه ،ووجد نفسه يقول دون أن يدرى

- لأ هو ما فيش غيرها يعنى ؟

- ليه لأ يا أبويا ، وهيّ بهية وحشة فى إيه بنت من توبنا وملهاش حد هنبقى سندها وهى هتخدم امى.

وأكدت والدته نفس الكلام ولكن الأب مازال مصرا على الرفض فما كان من الولد إلا أن هدد بأن يتجرع السم إن لم يلبوا طلبه ،فتصارعت لدى الأب الأفكار بين خسران ابنه أو الموافقة وبعد إلحاح الأم على النزول لرغبة الولد وافق الأب متغصبا ،وتم المراد وتزوج الولد من بهية التى فوجئ بما لم يتوقعه من أنها ليست بكرا وبسؤاله لها أجابت أنها تعرضت لإغتصاب من قبل من لا يملك معه قولا ولا ردا الطاغية عمدة القرية،وبال حول أوقوة كتم الشعور بالانتقام فى صدره فهولا يملك سوى ذلك ،فزمان الطواغيت يجعل الفقراء يتنازلون عن الكثير من حقوقهم خشية الموت ،وحتى الموت لا يخافون منه حبا فى الحياة ولكن حفاظا على ذويهم وأهليهم من الشتات والتردى.

مرت الأيام وتعاقبت الشهور والأسى يتملك الأب والأمل يحدو بالولد نحو مستقبل يراه مشرقا إلى أن أتت لحظة لم يكن الجميع فى انتظارها .

جاء الضيوف إلى منزل الطاغية ليقضوا سهراتهم التى تعتبر تسهيلا لبعض الأمور للعمدة بمبدألكى تمضى إلى اللا متاح عليك ببطن السفاح أو بالبلدى (اطعم الفم تستحى العين) أقول نصبت الجلسة التى يتبادل فيها الجميع كؤوس الخمر ولفائف

التبغ المحشوة بالمخدرات ويتركون الفتات للخدم ،والتى سيكون لمنصورنا هذا نصيب الأسد فيها ،ظل منصور يشرب ويشرب حت لعبت الخمر برأسه وفى عودته للبيت مترنحا يميل إلى اليمين تارة وإلى الشمال تارة أخرى إذ به يصل إلى البيت وبدلا من أن يمر من تحت السلم الطينى ليدلف إلى مخدعه إلى جوار زوجته الهاجعه ،إذ به يصعد درجات السلم المتهالكة درجة تلى الأخرى وهو لا يدرى إلى أين يذهب إلى ان يصل للحجرة الخاصة ببهية فيدفع الباب ليرى فيها شهوته المتراقصة ويلقى بجسده السمين على جسدها البض تحاول أن تدفعه عنها ولمن دون جدوى فالحيوان يتحرك بداخله بلا هوادة أو تؤده ولايسمع منها كلاما رغم نداءتها المتوالية له بانه الآن بمقام والدها ورغم أظفارها التى شوهت وجهه لكن هيهات للحيوان أن يدرك وفى اللحظة التى أعتلاها يدخل الولد

الذى جاء من سفره كى يأخذ زوجته ما بين أحضانه فإذ به يجدها بين أحضان أبيه هرول الولد مسرعا إلى الأسفل ولم يرى حوله سوى

شيئ واحد زجاجة السم الكائنة فى صدع من الحائط تتلوى الرؤى من حوله أبيه وزوجته وذكرى ليلة الزفاف وابن العمدة ولاخلاص سوى الزجاجة وضعها بين يديه ثم تجرعها بالكامل وغادر المنزل والسم يعربد فى أحشائه والرؤى تتلاشى شيئا فشيئا حتى أظلم...

طلع النهار والكل كالنمل يدب فى الأرض كى يمضى إلى حقله جارا خلفه بهائمه ،شمس صفراء وأرض يملؤها روث البهائم الذى تلتقطه سيدات البلدة طازجا لصنع بعض من الوقود ،وينادى مناد أن ثمة قتيل جره الكلاب من المقابر ويتعرف عليه أهل البلدة ويحملونه إلى دار العم منصور وتتلقى الأم المشهد فتخر مغشيا عليها من هول الصاعقة بينما يتمرغ الأب فى التراب من هول ما لا يعلمه الناس عن الحادث

،والزوجة البائسة كمن فاء إلى ظل شجرة من لفح الرمضاء ثم ما لبثت أن تولى الظل عنها لتمضى إلى الرمضاء ،لم تدم سعادتها طويلا ستعود كما كانت خادمة تحمل هم جنين فى بطنها يخرج إلى الدنيا بلا أب ولاجد فقد وافت المنية عم منصور الذى لم يحتمل ماجنت يداه ،وتصبغ حيا ة الأسرة الفقيرة بصبغة سوداء لا ابتسام فيها.

سحـــــــابات الألـــــــــــم

فى نفس يوم مولدى كان مولده ،خرجنا إلى الدنيا سويا ،عرفنا الحروف معا ,كم كان خيالنا يشطح بنا بعيدا إلى ما بعد السحاب ،إلى واقع افتراضى نعيش فيه بلا شيئ سوى المرح والخيال ،كانت كثيرا ما تتدفق بداخلى الكلمات التى أحاول صياغتها فى شكل قصصى مواز لما أنا عليه من السنوات الست التى مرت من عمرى ،فكنا كأى طفلين تربيا معا يتقمصان شخصية واحدة حتى لا تكاد تفرق بينهم فى الصفات والرؤى حتى الخطى متشابهة .

كانت طفولتنا النقية لا تفتأ أن يشوبها الكثير من الحرمان فلقد كانت أسرنا فقيرة وفى تلك الأزمنة الفقير فقير جدا والميسور يعيش فى رغد لا يكاد يرى من هودونه ،والمتجبرون يرون الفرصة سانحة لممارسة كل ألوان التجبر ففى القرية على سبيل المثال كان العمدة لا أجد كلمات أصف بها تعاليه وتجبره على الفقراء من قريتى ،لقد وصل تجبره وحبه للعلو ومهانة من هو دونه حد الجنون ،كان فى مرة من المرات يجلس أمام دواره الكبير على أريكة ويلتف حوله الخدم وماسحى الأجواق من الخفر والمدنفون بجبروته ممن تملك الضعف بل وحب الذل من قلوبهم وأفعالهم ،مر رجل فقير يحمله حماره المنهك ويضع أمامه بعض من البرسيم لما فى بيته من ماعز أو أغنام ،من المعتاد فى قريتى التى عشقت الذل أن من يمر على العمدة لا يعبر أمامه إلا

مترجلا فكان لزاما على شيخنا أن يترجل من دابته ليمر ولكن لأن جسده منهكا لاسيما أن التجاعيد التى تروى حكايات الزمن قد خطت فى وجهه رواية ملؤها الألم ،أقول أن تلك العوائق قد حالت دون ترجله فمر ملقيا السلام على الطاغية فلم يرد وأرسل أحد جلاديه خلف ذاك الرجل لينزعه من على حماره نزعا ويلقى بجسده النحيل على الأرض ولم يكتفى بذلك بل أخذ يجره على الأرض ليبلغ به حيث يجلس الطاغية بعد أن تدرج بالدماء الغالية ،وماذا يفعل الهزيل أمام من فاض الشحم واللحم من منكبيه فى غير جهد منه ولا سعى فهم كالثيران التى تربى من أجل الذبح يربيهم لدفع المكروه عنه وعن ذويه.

- ألم تعلم يا رجل أنك أخطأت بمرورك راكبا من أمامى ؟

إذا فانت تتألم من هذه الدنيا ولسوف أعفيك من هذا العناء وأريحك إلى الأبد .

- السماح يا سيدى ،وانهال الرجل مسرعا إلى قدم الطاغية يقبّله لكن الطاغية لا يشعر بأولئك التفهة فهم فى وجهة نظره خدما له ولا يجوز للخادم أن يعلو على سيده ،نهاية المطاف أن أمر الطاغية به فألقوه فى نار التنور بلا رحمة أو شفقة .

تلك هى المصيبة التى اعتادت عليها شعوبنا ،نظل فى ذل ومن يقتلنا من جلدتنا ولكنهم أحذية فى قدم الحاكم ،يقول قائل ربما هم مجبرون على ذلك ولكن أشرف لى أن ألقى فى النار خير منإلقاء غيرى فيها فالموت أفضل من أعيش بذنبى الذى اقترفته وأعيش طيلة عمرى فى لوم من الضمير ،ويكفى نظرة الأيتام من بعده ،وقد يرى البعض انى قد بالغت بوصف الطاغية حيث أنه من يعبّد الناس له من دون الله ولكنى أرى أن الخضوع لا يكون إلا لله ومن يجبر الناس على الخضوع له فهولا شك من الطواغيت .

أعود بكم إلى صديقى الذى مرت بنا السنوات سويا حتى كبرنا ونحن مازلنا لا نفترق ولا نختلف إلى أن بلغنا سنوات المراهقة وشغلتنى فتاة عشقت فيها كل مافيها وأطلعت صديقى على قصتى فما كان منه إلا أن أراد تقليدى فلم يجد سواها لينصب الشباك عليها ذاما فى شخصيتى وصدقى معها ،وحدث أن رأت فيه من يخاف عليها فانجرفت معه فى قصة علمت بها حين رأيتها تتغير من ناحيتى ولا تهتم بلقائى وكانت الصاعقة أنى فى ذهابى إليه ليلا سمعت صوتها معه ورأيتها بين أحضانه ، صدمت فى ذلك كثير وانفصلت عنها وعنه وظلت سنوات البعد تتكاثر وانتهت ما بيننا من جلسات حتى السلام لم نكن نلقيه على بعضنا إن صادف مرورنا بالشارع.

مرت السنوات طوال بدونه ،ونحن لا نرى إلا التصارع بيننا على فتاة حينما خيرت بينه وبين من تقدم لخطبتها اختارت على الفور من جاء يدق بابها علمنا بعدها أن ما بيننا لابد له من عودة ،عشنا معا فى صداقة قلما تجد مثلها على وجه البسيطة ، توفى والده المتجبر الذى حرمه كثيرا من ملذات الحياة رغم تربعه على عرشها قدرما حظيته الدنيا به ،أحدث ذلك فى حياته طفرة جعلت منه رجلا معاديا لكل ماهو متدنى ،كالفقر فى الطعام والملبس ...إلخ

هرمت أيامنا وتولت فى بطء رجل لا يكاد يحرك قدميه ،سنوات عجاف لا يستطيع الجبل تحمل ما نتحمله لكن اجتماعنا وتسامرنا جعل النهارات تمضى والليلات تفر من تحت أجفاننا ،وفى أحد الأيام لهونا كثيرا وفجأة وقع على الأرض ،لا مغشيا عليه بل متشنجا ،تتصلب الشرايين فى جسده ،ويبصق فمه زبدا كزبد البحر وحاولت جاهدا أن أرفع عنه تلك المشقة التى رأيتها فى جحوظ عينيه وتمرغه فى التراب ، ولكن المحاولات باءت بالفشل ،لحظات عصيبة أن ترى من هو عزيز لديك يتألم

وأنت عاجز حتى أن ترفع جسده لتجرى به ،مرت اللحظات ثقالا وأنا لا أدرى ما العمل وكأن الدنيا قد فرغت من البشر فنداءاتى بلا استجابة واستغاثتى بلا آذان تسمع ،وجاء برد الله ليهدأروعى حيث استرد صاحبى عافيته وهو يسألنى نفس السؤال الذى سألته له ماذا حدث ؟؟

لم نرد جوابا للسؤال يكفى أن اللحظة العصيبة قد مرت ولم تكن تلك هى المرة الأولى بل توالت الحالات وتدهورت صحته حتى أننى تمنيت لو عاد الزمان بنا فاهبه من يحب دون تنافس وأعطيه مايريد بطيب نفس أذكر آخر مرة كنا معا حين ذكرنى بما مضى من أيامنا متسائلا هل له أن يحلم أن يقف مرة أخرى على قدميه ، تملك السرطان من رأسه حتى قضى عليه فرحل فى صمت ، تاركا لى ذكريات حفرت على جذوع الشجر .

حب بلا أمل

جلس إلى النيل يشكو إليه ما ألم به من حرمان وشوق يكاد أن يفتك بضلوعه وما تحوى ، اختار المكان الذى كانا فيه يلتقيان ، كم التقيا على ضفاف النهر الذى أصبح صامتا ساكنا سكون الموتى تتهادى أمواجه غير عابئة بما يختلج فى نفسه من ألام البعد ، وتباريح الشوق وقد كان منذ زمن قصير يملؤ ضفافه الحب والحنان، همس إلى النيل أتذكر حينما كنا معا نملأ الأجواء بالقبلات ؟ الآن وحدى تزدرينى ذى الرياح ،والعين تألم من لظى العبرات أتذكر يا نيل كم جلسنا على ضفافك نحلم ببيت صغير يطل على شاطئك ، يلهو فيه صغارنا وتمتلئ القلوب بحب يفيض إليك فيجعل الأمواج حبا يروى ظمأ العاشقين وحينما يحل الليل نسمع صوت هدؤك الجميل وفى الصباح صوت نقيق ضفادعك والعصافير على الأيك تغرد بأنشودة للصبح ؟ مالى لا أرى الآن سوى الهموم ، أرى على ضفتيك السواد ونعيب البوم يغمر الأجواء ، هل نسيت جلساتنا عندك وبكاء السماء من فرحتها بنا وتوارينا من الأمطار تحت أشجارك مالى الآن لا أرى إلا ظلاما فى ظلام والسماء تمطر حنقا وبكاء وتتلثم بالغمام المشبع بالحزن والألم .

هذه الكلمات هى ماتحدث بها قلب صاحبنا حين أتى فى نفس المكان الذى كان يلتقى فيه محبوبته ولابد لنا أن نعود إلى الوراء قليلا لنرى ذلك الشاب النحيل الذى يمضى فى شوارع قريته غاضا بصره كأنما يبحث فى الأرض عن شيئ قد فُقد منه عُرف فى قريته بالشاب المتزن الذى إن أردت الحديث معه فلا يمكنك ذلك فى الشارع فصوته خافت بطريقة قد لا تُسمع ، كان يمر عليها فى اليوم الواحد أكثر من مرة ولكنه لا يراها فعينيه دائما إلى الأرض ، حتى جاء اليوم المشهود إرتفعت عيناه عن الأرض قليلا فتلاقت عيناه بعينيها، رمقته بنظرة جعلت فرائصه ترتعد من هول ما أحس ، ما هذا الشعور الغريب الذى انتابه؟ شعر بأن قدميه لا تكاد تحملانه ، وصل إلى منزله لم يلبث غير دقائق معدودة عاد على أثرها إلى نفس الطريق، فبالرغم من أن خللا ما قد حدث له إلا أنه أراد أن يستزيد من الشعور بالرجفة والرعشة التى أحس بها ،حينما عاد فى هذه المرة لم تكن عيناه للأرض كعادته بل علّق بصره على موضع وجودها وكأنها هى الأخرى تمثال ثابت فى موضعه نفس النظرة التى اخترقت ضلوعه لتنفذ مباشرة إلى قلبه ، تناثرت النجوم اللامعة فى مجال رؤيته ، وشعر أنه لا شك مغشى عليه ما هذا الشعور الذى سيطر عليه للمرة الأولى فى حياته ، ود لو عاد ليأخذ سهما آخر ولكنه استشعر الخجل والخوف من الرقباء .

لم ينم ليلته تلك بل ظل ليله بين نظرتين ألهبا المشاعر فى قلبه الفارغ ، كم تمنى أن يأتى النهار سريعا كى يراها مرة أخرى ليستقل شراع عينيها فقد يصل إلى بر آمن هناك عند أهدابها التى أزاحت بالأمس تحفظا دام فى حياته ، ولكن هيهات أن ينجلى الليل فالدقائق ساعات والساعات سنين وانتهى الحال به إلى بزوغ الشمس فسار إلى منزلها ولكن الناس موتى لا حياة لمن تناجى ، لماذا نامت؟ ألم تشعر بما

شعرت به ألم يؤرقها ما أرقنى ؟هكذا تحدث فى نفسه وبينما هو كذلك إذ بالباب يفتح وتخرج هى وكأنها تشعر بوجوده خارج بابها الباب يفتح ومعه أجمل إشراقة لأجمل بسمة قد رأها فى حياته .

وجه صبوح تصبغه بسمة تبعث على التفاؤل والسعادة ألقت السلام إليه تلعثم وكأنه لأول مرة يلقى السلام عليه سألته عن سبب وقوفه فزاد تلعثمه وارتباكه ولم يتحرك له ساكن إلا أن تسارعت الخطى منه وابتعد عنها ، وخفق قلبه بشدة ولام نفسه على مافعل وعاد أدراجه إليها وكأنها تنتظر عودته فألقى عليها السلام فقهقهت وهى ترد السلام عليه فقال فى نفسه ربما خالتنى مجنونا فبادرها بقوله أتيت كى أراك فتمعضت فى تجهم وتذكرت أن السؤال تلا السلام منها فى البداية فعلمت انه يرد على السؤال المطروح آنفا فضحكت مرة أخرى وسألته ألم تنم مثلى ؟ فأومأ برأسه دون أن يرد فقالت له أسهرت من أجل ما سهرت أنا له ؟ فهز رأسه ولكنه نطق هذه المرة قائلا لها: نظراتك نبهتنى أن ساعات الليل طويلة، فابتسمت وقالت : تلك هى المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك فمنذ زمن وأنا أراك تمضى أمامى وأتمنى أن ترفع عينيك فى عينى حتى تهمس عيناى بما يجول فى خاطرى ، فقال: حقا وما بقلبك ناحيتى ؟ فردت : هو الحب الذى ظل يؤرقنى كثيرا وحاولت مرارا أن أعبر لك عنه فافتعلت الكثير من العراقيل فى طريقك لكنك لم تعيرنى إهتماما ، حتى شعرت أن دون حبك خرط القتاد ، إلى أن جاءت الفرصة التى احتضنت فيها عيناى عينيك بالأمس فحملتها بكل ما بقلبى فحملته إليك وما يخرج من القلب يسقط فى القلب ،كم أنا سعيدة أنى أرى الأن ما حلمت به بين يدى .

سقطت الكلمات على قلب صاحبنا كقذائف متصارعة للنيل به ، فتارة يقشعر جسده وأخرى يرتجف من هول ما يسمع ولكن الشعور الذى غمره هو السكينة

والدفء ، ظهر الرقباء فى الشوارع فأراد أن يوارى الشمعة كى لا تطفئ الريح وهجها ونورها فانسحب من أمامها لا تكاد قدميه تهبط على الأرض فهو كمن يطير الآن فوقه من العصافير هائم فى دنيا السعادة والهناء .

كانت تلك بداية القصة التى ظلت لسنوات حكاية البلدة فكانت اللقاءات الكثيرة التى لا تكاد تنتهى إلا بوعد بلقيا جديدة تغير شكل حياته من التجهم إلى الإبتسامة التى لا تكاد تفارق وجهه، تحديا بالحب كل الصعاب تلاقيا على النيل ورسما الأحلام به وجاءت اللحظة التى لابد للعاشق فيها أن يبتعد لنيل المزيد من المال كى يظفر بمحبوبته ، فى أول خروج له من البلدة كثرت دموعها عليه

أعطى ظهره للبلد ولكن جسده فقط هو المسافر والمبتعد فما زال هناك قطعة من جسده خلفها فى قريته حاول إنتزاعها ووضعها فى الأضلاع لكنها آثرت أن تبقى إلى جوار من أحب ، عانى فى الغربة كثيرا فهيهات للجسد أن يحيا بهذه الدنيا وقلبه ليس فى جوانحه ، وشيئا فشيئا اعتاد البعاد ، كان يتحين الفرصة للعودة إلى الديار كى يقتنص النظرة واللقاء ويكبر الحب رغم البعاد وتكثر اللقاءات فى الأيام القلائل التى تمضى به فى رحاب حبها الذى لا ينتهى ، تمر السنوات وياتى مالا مهرب منه فالأزواج يتهافتون على ديار الحبيبة وتختلق العيوب فيهم ،حتى شعر والدها بأن ثمة شيئ ما يجعلها تعزف عن الزواج تتعلل بالتعليم ولكن أباها غير مقتنع بما تقول فيدخل أحدهم إلى أبيها ليعلن له ما قد غاب عن عينه أنها على علاقة بصاحبنا فيزداد حنق الاب على إبنته وينهرها وهى لا تجد فكاكا من إصرار أبيها على الزواج من أحدهم ، ويعود صاحبنا إلى البلدة وتصارحه بما آلت إليه حياتها وما تلاقيه من عذاب ممن يحيطون بها ولكن حياة صاحبنا تنقلب رأسا على عقب بعد وفاة أبيه

ليصبح هو العائل للأسرة فلا مجال ليفكر فى نفسه وآماله فقد تعلق فى عنقه آمال أطفال صغار وأرملة

عجوز وأخت على عتبات زواج ، لا يدرى ما يفعل وجد نفسه يمضى إلى أبيها جلس إليه حدثه برغبته فى الإرتباط بها ولكن الأب كان واقعيا فضلا عن فظاظته فى الحديث إليه فهو يرى أنه قد حل ضيفا من نافذة البيت لا من بابه ، أحس صاحبنا بالخزى من فعل الحياة معه وسرعان ما جرت الأيام وأرغمت محبوبته على الموافقة على من تقدم لخطبتها وتمت مراسم العرس فى لمح البصر كى ينقذ الأب ما قد تبقى من ماء وجه إبنته التى علم الجميع بقصة حبها ،مازال القلب يتقطع فى جنباته وغدا سيكون زوجا لأخرى قد تركت فى قلب من يعشقها جرحا غائرا ، كما تركت تلك فى قلب صاحبنا جراحا لا تموت .

هكـذا الدنيـا

منذ أن تركت مسكنى القديم وإنتقلت إلى مسكن آخر أمر فى كل يوم فى ساعة متأخرة بحكم عملى الذى يستمر من الساعات الأولى للنهار وحتى منتصف الليل أمر على طريق للقطار ألمح فى كل يوم كومة من الظلام التى لا أدرى أهى كومة من تراب أم أنها من القمامة إلى أن رايتها يوما تتحرك فدب الخوف فى قلبى خلتها شبحا تارة وخلتها بشرا تارة أخرى إلى أن تحققت لدى الرؤية فعلمت أنها لرجل ساقنى الفضول أن أعرف ما الذى يدفع بهذا الرجل ان يلقى بجسده بين أحضان العراء فى حلكة الظلام وصفعات البرد شتاءا ورمضاء الصيف وحره ، خلته فى البداية فقيرا لا يجد لنفسه ملجأ ولكنى حين علمت قصته أحسست بمزيد الأسى فيمن يأتى عليهم الدنيا فعمى حامد رجل عاش فى رغد يملك من الدنيا كثير مال ويحيا فى سعادة مع زوجته ولكن لا أنيس لهم من طفل يملأ الدار عليهم صخبا وحنانا ، كم استجدته أن يتزوج بأخرى كى تلد له من يجد فيه ما يتمنى لكنه أبى لحبه الشديد لها إلى أن توفاها الله وأشار عليه ذويه أن يتزوج بأخرى وكان ما كان وتزوج بأنثى جميلة

استكثرها الناس عليه لا سيما وهو الدميم الخلقة ، كانت له العلاقات الكبرى بأصدقاء الخير والسوء الذين ترددوا على منزله ليلا ونهارا تجمعهم مصالح الدنيا ويتفرقون عليها ليأتى نهار جديد يكرر ما حدث بالأمس مرت الأيام رتيبة ولا جديد لم ينل منها ماقد تزوجها لأجله ،

فقرر أن يعرض نفسه على طبيب كى يعلم بيت الداء فإن كان منه فلا ضير وإن كان العيب فيها بدلها بغيرها ، وكانت الفاجعة أن الداء يسكنه هو ، لم يخبر زوجته بما فيه ولكنه آثر أن تظل الأمور كما هى عاشا معا لفترة طويلة كان يغلق باب صدره على أسراره يخاف أن يخبرها فتتركه ليحيا وحيدا بما يحمل فى قلبه من غصة ، كم كان يتمنى أن يرى طفلا يعبث بلحيته ويبتسم بسمة صبوح فى وجهه تحمل عنه ألام الحياة ، يد صغيرة حنونة تزيح عنه كل ما سطره الزمان على وجهه ، تكاثر الصحاب حوله فالكل يهرب من بيته ليجد فى بيت صاحبنا مرتعا للرغبات فى الهدوء والسكينة وجميل الترحاب والضيافة ، تغيرت زوجته من ناحيته لم تعد كما كانت لاحظ نظراتها لصديق من أصدقاءه وقال له احدهم أنه رأها تقف معه فى الشارع لأكثر من مرة لم يدر صاحبنا أنه هو من تغير فحمل الداء فى جنبه جعله شارد الفكر وكلما أبدت زوجته الرغبة فى الطفل تجهم وجهه وتركها ومضى فأحست بذلك التغيير وما كان منها إلا أنها جلست إلى أحد أصدقائه لتتشاور معه فى شان زوجها وما آلت إليه حالته ، لم تكن الخائنة التى تصورها ، تمضى الأيام سراعا ويزيد على صاحبنا هما آخر وهو إحساسه بالخيانة إضافة إلى عدم قدرته على الإنجاب ، وفجأة والمر يأتى بعد فجاة تمرض الزوجة وحين تعرض على الطبيب يقر بأنها حامل وتنزل المفاجأة على صاحبنا كزخات مطر من نار ، من أين أتت بالحمل وهو لا ينجب ، أيصارحها وينفصلا ولكن كيف للناس أن تغفر ما قد نسج من الحكايا ،أم

يتكتم الأمر فى نفسه ولكن كيف له أن يغفر ما حدث ، وبعد المغفرة كيف يربى إبنا ليس بإبنه أذن الفجر وذهب للصلاة فكان البرد الذى نزل على جسده فقد سمع الإمام فى الصلاة يقرأ " وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" لم يسمع سوى تلك الآيه ورأى فيها الخلاص مما اختلجت به نفسه ولكن النفس البشرية لا تصفو سريعا فهو كلما نظر إليها تلوح فى ذهنه صورتها مع صديقه وهم فى الفراش تمر السنون ويتضاءل الجرح أحيانا وأخرى يتعاظم وتلد الزوجة ويكبر الطفل ويدخل المدرسة وقد انقطع صاحبنا عن أصدقاؤه وزوجته أيضا فالعلاقة بينهما لا تتجاوز الفعل ورد الفعل لا مشاعر ولا أحاسيس فالجرح فى قلبه وتُنكأ الجراح بالذكرى فعادت الزوجة تحدث الصديق المزعوم أن يرى حلا لها مع زوجها الذى بات غريبا فيواعدها بالمجيئ إلى الدار فى وجوده كى يتحدث إليه كأخ لزوجته وصديق عمر له أخبرته الزوجة أنه يمضى لعمله فى العاشرة صباحا فأخبرها الصديق أنه سيمر فى التاسعة ، وفى اليوم الموعود قام صاحبنا من نومه مبكرا فرأى أن يذهب هو بالطفل إلى المدرسة وكان طريق المدرسة يتخلله طريق قطار فمر الرجل بالطفل إلى المدرسة وفى طريق عودته فكر فيما مضى وقرر الصفح فهو لم ينم البارحة فرأى أن يأتى بالإفطار لزوجته كى يفطرون سويا بعد دهر مضى دون إفطار معا وفى نفس اللحظة جاء الصديق إلى بيت صاحبنا كى يتم الصلح ، جاء الرجل حاملا إفطاره لزوجته وفتح الباب إذ به يرى الصديق فى داره استشاط غضبا دون أى داعى ونهر صديقه وطرده من المنزل وإنهال على زوجته ضربا دون أن يسمع استغاثتها تتراءى له المشاهد التى هى من وحى خياله فقط حتى لفظت أنفاسها بين يديه وبينما هو كذلك إذ بالباب يطرق طرقا متسارعا جال فى خاطره أن الجيران قد سمعوا صراخ الموءودة فجاؤا لنجدتها فحار فى أمره أيفتح أم لا ، وسرت به قدميه ناحية الباب فإذ بأحدهم يخبره بأن القطار قد دهس طفلين من المرجح أن إبنه

أحدهما فتمزق تفكيره أيمضى معهم أم يبقى لإخفاء ما اقترفت يداه ولكنه كان مسيرا فى جريه إلى قضبان القطار التى كانت على مقربة من بيته ، ورأى الفاجعة اختلطت أشلاء الطفلين فيه ضدان يتصارعان فقد قتل الخائنة ومات ابن الخطيئة أيضحك مما جرى أم يبكى على خطيئة قتله التى جعلت من حياته قطارا يتجه صوب طريق واحد وهو العقاب ، تساوت لديه الدنيا فقد خرج من سجن أضلاعه وينتظر سجن البشر له ، رأى الأمن أن يؤخذ منه عينة لتحليل الحمض النووى له كى يمكنه حمل الجسد لدفنه فأحس بفضيحة وشيكة فسيعلمون أن كلا الطفلين ليسا له ولكن خابت ظنونه فقد خرجت نتائج التحاليل لتثبت أن أحد الطفلين ابنه وأن ما دار فى رأسه لم يكن إلا محض افتراء وشك أطاح بزوجته الوفية وطفله الذى ظل طيلة حياته فى انتظاره ومن بعيد وعند تلك القضبان رأى ابنه وهو فى حلته المدرسية وأمه تمسك بزمام يديه ينادون عليه كى يأتى ليعبر بهم الشارع فجرى إليهم ولم يجدهم وكلما أفاق من أوهامه رأهما ينتظرانه إلى أن ركبا ذات مرة القطار قائلين له أننا سنمضى إلى نهاية المطاف وفى انتظارك ولكنه كعادته عاند وآثر أن ينتظرهم هو عند تلك القضبان التى سلبته أعز ما يملك بسمة الملائكة .

خطوة نحو التغيير

ترصد آكل النمل بخلية للنمل فمر آخر عليه فسأله ما يبقيك هكذا ؟ فرد قائلا: الصيف آت وأنتظر خروج النمل فبطنى خاوية ، فقال له المار: لا شك أنك تنتظر منذ زمن، فقال : كثيرا حتى كاد أن ينفذ صبرى فأشار عليه بوضع تكتيك جديد كى يظفر بالنمل فتساءل وما الحيلة فقال المار: ما رأيك لو خلقنا فيهم الرغبة فى التغيير ومحاولة التمرد على النظام الذى عكفوا عليه طيلة عمرهم فلنملأ صدورهم بنفثة من نار وجذوة من التملص من قيود النظام ورتابته ، فنجعلهم ينقلبون على الملكة ويكون هناك نظاما برلمانيا شعبيا يضمن للنمل أن يتحكمون فى مصائرهم بأنفسهم ومن ثم يتفرقون ولا يجتمعون وكل النتائج فى صالحنا ، فإن زرعنا الشر فيهم فلن يبصر أحدهم الآخر ويتمزق جمعهم ونجلس لنأكل الشاردين والواردين فى سكينة ودون جهد منا ، وبينما هم كذلك إذ خرج عليهم بعض كشافة النمل فما أن رأوا آكلى النمل حتى ولوا هاربين فاستوقفهم آكل النمل مانحا إياهم الأمان ، وعرض عليهم الفكرة فاستطرقت النملات فى إعجاب منقطع النظير فهم لا شك يكرهون حياة الرق والأوامر التى لا تنتهى وجلسوا سويا الأعداء لدراسة آليات التمرد والخروج على الملكة واستوعب النمل الدرس جيدا وعادوا إلى قطيعهم يحدثونهم بما آلت إليه رؤسهم الدقيقة من أفكار من شأنهاأن تغير أوضاعم التى يرونه فى ضعة ومذلة ،وسرعان ما انتشر الفكر بين النمل جميعا وأعلن التمرد على الملكة ، وما كان منها

إلا أن خضعت لما يريدون فإما أن ترضى أو تموت وأشار حكيمهم أن ينتهجوا نهج الآدميين فى انتخاب من يمثلهم ويتقلد الحكم على أن يلبى رغباتهم وتطلعاته للمزيد من الحرية ، كل ذلك وآكلى النمل يتابعون ، تتضور بطونهم جوعا لكن من يأكل أخيرا يأكل كثيرا ، نعود للنمل الذى رأى فى رجل الدين منهم ملاذا لما ترنو إليه نفوسهم ولكن المحاولة باءت بالفشل فقد عكر صفو الحياة لديهم ووجدوا فيه فوزا بالآخرة وضياعا من الدنيا فمعه لابد من ترك الملذات وقد فعلوا ما فعلوا لنيل الملذات ، إضافة إلى أنه لا يملك حنكة سياسية فى إدارة شئون الخلية ، فقال أحدهم لم لا نولى امرنا مثقفينا فولوا أمرهم مثقفيهم ولكن ازداد الأمر سوءا ، وطال بهم الحال فى إختيار من يحكمهم فرأوا أن الخروج من الجحر سوف يجعل الأفكار أقوى ،وخرجوا جميعا فى العراء لعله يأتى بأفكار خارج الصندوق ،ونزل عليهم الإلهام بأن تكون دولة النمل لا مركزية يرعى كل شئونه ولكن دون المساس بحقوق غيره تحت مظلة قانون يعاقب الجانى ويحمى حقوق الآخرين ولابد من وجود سجون لكى يلقى فيها من تقع عليه العقوبة ، صرخ أحدهم ألم اقل لكم ان الخروج من النفق يخلق الأفكار فها نحن قد هبطت علينا الأفكار لحظة خروجنا من الجحر ولم يستكمل كلماته حتى نزل من السماء ما لم يضعوه فى حساباتهم ،نزل المطر فلقد جاء الشتاء وما ادخروا له شيئا من قوت ولا أو غذاء فصار النمل يتهاوى ويسقط فى برك من الماء ، منهم من يصرخ ليتنا ما تغيرنا وآخر يصرخ أننا نسينا الحياة فى بحثنا عن الديمقراطية ، فقام آكلا النمل ليتصيدا فرائسهم فى لين وتؤده .

ليلة سهـــــــر

تلصص لى الطريق من خلف بابى وأنا أجاهد النوم الذى إتخذ موقفا معاديا لعيناى اللتين أرهقهما السهر ، قفزت من جلستى وقد هجعت القرية منذ ساعات طوال فكل من فيها يستعدون للعمل بعد ساعات قليلة كخلايا النحل يطنون منذ لحظات النهار الأولى فلا تسمع فى الشوارع سوى ثغاء الماشية وهمهمة الفلاحين بالسلام على بعضهم صباحا يستمرون فى حقولهم حتى تميل الشمس للغروب فيعودون إلى منازلهم وقد كلت أيديهم من العمل وأجسادهم كذلك فيخلدون إلى نوم عميق أشبه بساكنى القبور ، إلى أن يأتى النهار ولا جديد .

مضيت فى الشوارع أضواء شحيحة وحياة تخلو من الحياة ، ليس إلا بعض النباح من الكلاب التى استشعرت ضربات قدمى على الأرض وبعض أصوات الديكة للفجر المخادع وأصوات الضفادع فى المجارى والمستنقعات التى ترتمى على أطراف القرية والمئذنة القديمة التى تحمل تراب السنوات البائدة ، مررت بالحارات والدروب أهيم بلا هدف سوى أنى أشعر بالأرق والوحدة فيجول بخاطرى بعض الذكريات التى حفرت على حوائط البيوت وتراب الطرق فهنا كان اللقاء الأول ،وتلك القبلة الأولى ، وهناك .. ماذا هناك شبح آدميين يتجهان نحو بعضيهما يقتربان أكثر فأكثر يتعانقان رجل وإمرأة لعله من الغريب لدينا فى القرية أن يصحو أحد فى تلك اللحظة فضلا عن تعانق الضدان ، اقتربت أكثر

فشعرا بقدومى فهرب أحدهما ورأيتها فألقيت عليها السلام فلم ترد لكنها لاذت بالرجاء أن ما شاهدته سرا فهى التى تركت زوجها فى فراشه كى تلتقى عشيقها فى عمق الليل وجلت من طبيعتى البشرية وعدتها بأنى نسيت ما حدث ، تركتها ومضيت فى طريقى إذ بالعاشق ينتظر بعيدا كى يطمئن على من تركها لتوه عرفته وعرفنى كبرياؤه جعل ما بينى وبينه حائلا فهو الرجل الذى لا يهاب أن يقال عليه شيئا ، لمت نفسى كثيرا فلولا خروجى فى ليلتى ما كانا افترقا ليس اقرارا لما يفعلوه ولكنه بنومى أو بسهرى كانا سيلتقيان وغدا فى نومى سيلتقيان أيضا ،وما يشعرنى بالأسى هو الفرقة مع الخوف منى ، مضيت فى طريقى فوجدت أخر ينزل من فوق شجرة ملاصقة لمنزل به عشيقته الباب يفتح ويخرج زوجها يطارد السارق فى وجهة نظره وكما قال المثل الشائع "اللى ما يعرفش يقول عدس"اصطدمت بالعاشق وتركته يمضى وقابلنى فى الصباح وأخذ على العهد أن أتكتم ما رأيت بالأمس ، أما الزوج الواهم بأن ما كان بالأمس سرقة فقد سألنى فى الليلة الموعودة إن كنت قد رأيت السارق أم لا فأجبته بالنفى رغم علمى بالعاشق السارق عدت إلى منزلى سريعا فعنادى للنوم أهون على من أرى ما رأيت فقد كذبت ، وداريت على الجريمتين ، وبين لحظة وأختها أصبحت كاذبا ومدلسا وخافيا للحقائق التي تحدث حين نغط في نوم عميق ،كم هو جميل ذلك النوم الذى يجعلنا ننكفئ على أحلامنا ، ونترك الآخرين فى همومهم وتطلعاتهم .

العمـــــــــدة

عهدته منذ ولدنا سويا شخصا كبقية الأشخاص يريد كل شيئ وقد لا يجد أى شيئ ، اختلفت حياتى عن حياته فى العديد من المناحى فهو الفلاح ابن الفلاح الذى يملك العديد من الأفدنة التى جعلته رغما عنه فى انقطاع من آماله الكبيرة من المتعة فهو الذى ينام مبكرا من فرط التعب الذى يلاقيه طيلة النهار من ذهاب للحقل وتغذية الماشية وتهذيب الأرض الأخرى لزراعة القمح وأخرى للبرسيم وفى كل يوم هم ، لا يجد فى نفسه فسحة من ليل يقضيها مع الرفاق ، وعشقه لفتاة لا تشعر به يراها فى وقته المحدود الذى يسرقه من النهار بالجلوس أمام منزله حين تمر يشعر بقلبه يقفز من جوانحه كى يكون مظلة تقيها من شمس النهار الحارقة ، يرى فيها السلوان مما يلاقى من تعب وجهد فى نهاراته ولياليه ، أما أنا فلا أملك من تراب الأرض شيئا يمضى يومى بين مدرستى وكتبى والتجوال فى الحقول ، ولعل التجول فى الحقول إن كان اختيارا حسن وإن كان اجبارا قبح وأسهر كثيرا مع من على شاكلتى من المنقطعين عن المماليك ، قرر فى لحظة ما أن يتنصل من المهمات الجسام من رعاية الحقول والأغنام والماشية وقرر الذهاب إلى القاهرة للعمل كى يشعر بعيشة من لا يملك الحقول مثلى ، فهو يريد العيش فى طلاقة بلا قيود ، كلفه ذلك العديد من المشكلات غضب والده وحنق أخوته الذين حملوا عنه مهامه ، وفى زيارته الأولى للبلد المتكدس شعر

بالأمان والحرية التى لم يكن لينعم بها فى بلدته أمان فى النوم فلن يأتى والده بصوته الأجش كى يوبخه بكلمات غلاظ ينهره على كثرة نومه التى يراها لا تكفى جسده المنهك ، وحرية من السؤال إن راح أو جاء لارقيب عليه من أهله يمضى حيث يمضى ويغدو وقتما أراد ، سلك طريقه بلا عقل وجد فى الملذات والشهوات الدنية صدرا حنونا ، أصبحت النساء دما يجرى فى عروقه ، وأصبحت الفحشاء أسلوب لحياته لا خطرا يقر إن رآه فى طريقه ، كنت آنذاك أعمل فى المدينة حين تصادف مرورنا ووقعت الأبصار فى شراك الصدفة تعانقنا ، حدثنى بحديث المتعالى العالم بما لم أحط به ، حدثنى عن عمله ومغامراته وكيف لطم فتاته على وجهها حين أهانت كرامته ، ومغامراته القوية مع صاحب العمل الذى يحسب لصاحبنا ألف حساب تركته على وعد اللقاء ، بعد أن تشربت أذناى بكلماته التى لم أشك لحظة أن معظمها كذب إن لم يكن كلها ولكن ما صدقته أن له العديد من المغامرات الساقطة مع النساء ، استمر فى سياسته تلك وفى انقطاع تام عن البلدة حتى أن والده قابلنى فى إحدى إجازاتى وإلتمس منى الذهاب إليه لترقيق قلبه كى يراه لا سيما وهو يشعر بأن الأجل قد اقترب ، مما دفعنى للبحث عنه ووجدت رقم هاتفه مع أحد الزملاء وهاتفته معربا عن رغبتى فى مقابلته فوصف لى إحدى المدن الجديدة التى جعلت خصيصا لعلية القوم وأغنياؤه ، فأخبرته أنى لم أزر تلك المدينة من قبل فأجابنى أنى سأهبطها

وأسأل عن العمدة فأخذت كلماته بشيئ من العبث واللامبالاة وحين وصلت المدينة حاولت الإتصال به ولكن هاتفه كان مغلقا ، حتى فقدت الأمل فى لقاءه فدلفت إلى شوارع المدينة الراقية كل الشوارع ملأى بأنواع السيارات الفارهة والأشجار الجميلة نعمة يلهو بها من يملكون وفقراءنا لا يسعهم حتى تنفس الهواء النقى فحجراتهم

الضيقة مكتظة بالبشر وأحيائهم تكاد تخلو من الأشجار يعانون حر النهار وجحيم الليل ، وبينما انا فى شرودى إذ بى أتساءل ماذا يحدث إن فعلت ماقال سأسأل أحد حارسى العقارات عن العمدة ، وسألت أحدهم فوصف لى المكان الذى ساجده فيه وحارت الأفكار فى رأسى ربما يعمل حارسا عند عمدة المدينة أو أنه يعمل فى إحدى المحال التجارية ويحمل اسم العمدة ، لم تتصارع الأفكار فى رأسى كثيرا فقد وصلت إلى حيث كان الوصف لكنى لم أجد محلا يحمل الإسم المراد ولا لافتة مكتوب عليها فيلا العمدة فسألت أحد المارة عن العمدة فأجابنى أنه من يجلس هناك فى طرف الشارع فمضيت إلى آخر الشارع فلم أجد أحدا يجلس هناك سوى صاحبى المقصود ، تهلل وجهه فرحا حين رآنى واستقبلنى بحفاوة من ينتظر غائبا عاد لوطنه ، جلست إليه لأرى رجلا غير ما أعهد فيه ، حديث يملؤه القليل من الشوق والحنين لبلدته وأهله والكثير من الإستعراض بما ألقت له الحياة من اموال ، ومشروعات ونساء أيضا فهو لا ينسى حظه من النساء كمن جاع عن عدم لكل متاع الحياة

وفجأة أتته الحياة طائعة ترسم الأمال فى خطواته وتفرش الطرقات له بشتى المتع والرغبات ولكنى وجدت فيه نهما لكل شيىء حكى لى عن مغامراته التى شيبت كل من حوله ولم ينسى البداية التى كانت بحراسته لفيلا أحد الأثرياء الذى قرر فجأة الهجرة من بلاده إلى بلاد أخرى يستمر فيها حتى يعود للوطن كى يسكن الرمس ، فقرر أن يبيع فيلاه لأى مشتر وبأى سعر فكانت الفرصة التى تصيد فيها صاحبى الكثير من المال الذى جاء بشيئ من الاحتيال ، وكيف اشترط على المالك الجديد أن يظل حارسا للفيلا ، وكيف تجرأ على المضى فى مجال البيع والسمسرة حتى وصل لما هو فيه ، لا يفيد إذا ما تطرقنا لما وصل إليه امن حلال أم هو من

الحرام فتلك القيم لم تعد فى ميزان البشر فالمجتهد غير المجاهد ،أقول استمر الحديث لساعات طوال مرت على أشبه بفيلم سينمائي به الالدراما والتراجيديا والحركة والكوميديا مزيج من تجربة شاب رأى فى المال بغيته وفى أحضان النساء مهده ، حدثته عن رغبة أبيه فى رؤيته لا سيما وهو يمر بحالة صحية مزرية ويوشك أن يسدل الستار على النهاية فلم يكترث بما قلت فعاودت تذكيره فأجابنى أنهم قد انتهروه حين تركهم ولا يريد أن يعود إليهم فهو سعيد بما فيه ، وأخرج لى منجيبه لفافة تبغ مخلوط بالمخدرات فرفضت فأشعلها معلنا نهاية العرض وانصرفت عنه .

وحين عودتى قررت أن أكذب على أبيه بأنى لم أره أو أقابله ومازلت أبحث عنه ولكن أبت روحه أن تستمع لشفاهى وهى تكذب ففارق الحياة وهو ناقم على ولده ، وحزنت الزوجة كثيرا على زوجها ، وعلى إبنها أيضا الذى لم يات ليدفن أباه أو يأخذ العزاء فيه وابيضت عيناها من الحزن ،وأهملت الأرض وضاق الحال وأصبحت تستدر العطف من الناس كى يطهون لها طعاما أو ينظفوا لها ملبسا ، وصاحبنا غارق فى ملذاته ، وتدرجت به السبل فسلك طريقا وعرا فى تجارة الآثار ، والسلاح والمخدرات ، وأكتشف أمره وطاردته الشرطة حتى ترك مملكته وصار لأجئا فى كل بلدة ، وما تبقى له من مال كانت إحدى الراقصات قد إحتضنته ظنا منه أنها تحبه ولهفة منها لاصطياد ما تبقى من فتات ماله ، حتى أنها وبعدما تحصلت على أمواله لفظته وألقت به فى الشوارع ، صار طريدا هنا تحركت فيه مشاعر الحنين إلى أبيه وأمه لا حبا فيهم بل ملاذ من التيه الذى صار يعربد فى أضلاعه ، ضاقت به السبل تلصص ليلا عائدا إلى بلدته ودق الباب فردت أمه من بالباب فرد إبنك فقالت كم عدمت الأبناء لم يعد لى أبناء ولكن قلبها المغمور بالشفقة جعلها تفتح الباب له ليلقى بنفسه تحت قدميها وتنهال عليه ضربا وهى بين العقاب

والعذاب يتقطع قلبها حبا له ولكن يداها لا تقويان على الخضوع لما فى قلبها من ألم سمع صوت جعجعة وضجيج علم أنها الشرطة أتت فى أثره فصعد أعلى المنزل ثم إلى منزل الجيران ثم إلى آخر ظن أن اللصوص أتوا إليه فأخرج بندقيته وقتل صاحبنا ظنا منه أنه السارق ، بكت الأم كثيرا حين وقع على آذانها الخبر فقد فقدت حتى ما تبقى من إبنها حضنه الدافئ.

لـــــن تـــــــدوم

مر به العمر واقتربت قدماه من عتبات العقد الرابع من عمره وذكرته أمه بأن المكوث على المحطات قد طال ولابد من اللحاق بقطار الحياة وأول ما يمكن إتخاذه هو خطوة الزواج ، وكأن أمه قد فتحت له بابا لسرد الذكريات فتذكر كم كان يحبها وتحبه وكم تمنيا أن يكلل الله بالزواج حبهما ، وكيف حالت الظروف بينها وبينه لتتزوج هى ويبقى هو على حالته وحيدا ، يرقع ثوب الحاضر بذكريات الماضى ولا يجد فى المستقبل مهربا من حاضره المقيت ، كقضيبى قطار لا يلتقيان كانت قصتهما ، حتى لو إلتقيا فقد يودى ذلك بإنقلاب قطار آمالهم وأحلامهم ، تلك هى الحقيقة نحب فنفترق ليتزوج كل منا بمن أحبوا وإفترقوا ففى اللحظة التى نكون فيها مجنى علينا نكون جناة فى حقوق من ظلمناهم كما ظُلِمنا ،نسى نفسه حتى أن أخاه الذى يصغره تزوج قبله وبعد إلحاح من الأم تزوج زواجا تقليديا واقتطع كلا الزوجين أشياءا من الماضى ليجتروها كما يفعل الحيوان كى لا يشعر بالجوع ، تعايشا وعاشا ومرت الشهور الطوال والأم لا يشغلها سوى أن ترى لإبنها ولدا يملأ البيت عليهم ضجيجا وفرحا ، كانت أمنية الأم هى آخر ماشهدته من الحياة وتوفيت قبل أن تنال ما تتمنى ،ظل الأخوان فى وفاق حتى لعبت زوجة الأصغر فى عقل زوجها ، بأن لنا أولاد هم الأولى بأن يعرفوا حقوقهم فى ميراث العائلة فاختلف الأخوان وكان الفحش والقسوة

من الصغير المنصاع فى كنف زوجته ، وتقاسما التركة ومازال يمنى نفسه بطفل يؤانس وحدتهما ذهب إلى العديد من الأطباء ولم يجد من يحنو عليه بكلمة فيها بصيص أمل ، وبدأت المشكلات تطفو على سطح ماء البيت بعدما سمع كلمات من أهل زوجته أن التركة التى لديه ستؤول إليهم بعد وفاته ، فتنبه أن الموت قد يكون وشيكا لا سيما وأن الجسد المنهك ما عاد يحتمل قسوة الزمن ، هو لا يشك فى لحظة من اللحظات أن زوجته ما كان يحلم بمثلها فى أخلاقها وحبها له وخوفها على ماله وصحته ولكنه يخشى أهلها ، ورأى أن يتمتع بما تبقى فى حياته ولكن لابد من نظرة للغد ، فطرأ فى باله أن يجعل أخاه أمينا على أمواله بأن يكتب له البيت والحقول وكل ما يملك على أن يكون أمينا عليها ويضعها فى تصرف زوجته بعد وفاته ، وباع جزء من أرضه ليذهب هو وزوجته فى رحلة للحج وفى طريق عودتهما شعرت الزوجة بالإعياء الشديد فلما ذهبا إلى الطبيب أخبرهما بما لم يتوقعان فلرب رمية من غير رام ، كادت أن يغشى عليها من هول ما سمعت ، فلقد رزقا بجنين ، وكادت حياتهما أن يكون لها قيمة منّوا أنفسهم بالمنى فهُنا سيكون مهده وهُنا سيلهو ويلعب وهُنا سيحبو ويمشى وهُنا سيذاكر وهُناك سيتزوج ، رسما له حياة كريمة ، وتسارعت الأيام وجاء الأمل والحلم ،بذرة المستقبل ، والآن لم يعد هناك حاجة لتولى أخاه ولاية أرضه بعد مماته فقد شعر بأن الولد قد أهداه عمرا جديدا لا يفكر بالموت فكأنما الخلود قد لاح فى أفق حياته ، ذهب إلى أخيه كى يحنث فيما تواعدا عليه ، فأنكر الأخ الجاحد ما اتفق عليه الأخوان سابقا ، فصُعق الأكبر مما تحدث به الأصغر" أنك قد بعتنى أرضك ولا شيئ لك عندى "وتصارعت فى داخله الأفكار ، ألهذا الحد قد إنتهت الأمور ، ليتنا ما خلقنا كى لا نعيش لحظات يكذّب فيها الأخ أخيه ، فإحساسنا بالخيانة لايكون فى الموقف قدر إنكشاف صورة من عاهدنا فيما لم نعهده عليه من قبل ، ذهب إلى بيته مضطجرا ورأت

زوجته عبوسه فسألته عن السبب فأراد التخفيف عن نفسه ليتقاسما الألم ، فانزعجت بما قال فكل ما قيل يؤلم ، من خوفه من أهلها تارة ومما فعله أخيه تارة أخرى فصُدمت فيما سمعت وآثرت أن تتركه فى همومه لتعود لبيت أهلها مصطحبة ولدها فهى لا تطيق رؤية من نبذ أهلها وهم الذين يحبونه ، ومنحه الثقة لأخيه دونها ، هام صاحبنا فى سكون بيته الذى كان بالأمس يعج بصراخ طفله ودأب زوجته ، واشتكى مافيه لشيخ المسجد فأشار إليه بالذهاب لزوجته وابنه فقد أخطأ فى حقهما وقبل الذهاب تأبط ذراع الشيخ وذهبا للأخ الجاحد للحديث معه عن عودة الأمانة لكن دون جدوى فمن يخون لن يضع نصب عينيه الله والجنة والدين الذى تحدث به الشيخ الجليل ، لم يقل صاحبنا سوى حسبنا الله ونعم الوكيل ومضى لزوجته التى تعيش فى قرية مجاورة لقريته وفى الطريق تتدافع أمامه الصور والذكريات ولا مشهد يتكرر فى عينيه كمشهد الإتفاق بينه وبين أخيه ومشهد التنكر لما قيل ،فما أقسى أن تدفع لمن هو منك بالخير فيردك خائبا .

ذهب إلى زوجته وإستقبله أهلها بحفاوة شديدة وكان ذلك لأن زوجته ما أخبرتهم بما تم بل جعلت من زيارتها تلك منحة من زوجها لزيارة الأهل وخدمتهم والمكوث بينهم لفترة ،فرحب الأهل بما تفضل به الزوج وأصروا على بقائه بينهم ليومين ، وتجاذب وزوجته أطراف الحديث فى خلوتهما وأبان لها أن ما أراده فقط هو ضمانة حقها لا خوفا من أحد بل خوفا عليها ، وسألته عما ينتوى فعله مع أخيه فأومأ برأسه إيماءة من لا يدرى ما يفعل ووكل أمره لله لعل السوء يمضى وعادا إلى البلدة وما أثار حفيظته أن أحدهم سلم عليه قائلا له البقاء لله بحثت عنك فى الجنازة لم أجدك ، وآخر قال له نفس الكلمات فسأله على لهف ماذا حدث فأنا خارج البلدة منذ يومين فأخبره أن أخاه وزوجته ناما ليلتهما قبل الماضية فإنهار عليهما المنزل فماتا ،

فارتعدت فرائصه وابتدر بالسؤال والأولاد فرد الرجل لحسن حظهما أنهما كانا يبيتان فى بيت جدهما ، فهرول مسرعا لا يدرى ما يقول سوى لا حول ولا قوة إلا بالله وأحتضن ابنى اخيه وضمهما إليه ليكون هو مالكا لأرضه وأرض أخيه ووصيا على أبنائه وهكذا من طمع بالدنيا لا يعلم يوما أنها لن تدوم .

أشعـــــــر بك

تسللت يداه إلى جسدها مداعبا ، رغبة حيوانية سرت فى جسده وسيطرت على عقله وجوارحه ، لم تهتم فكل ما يشغل بالها هو انتهاء الراغب من قضاء رغبته لتخلد إلى النوم ، لحظات بلا مشاعر ونباح الجنس يملأ أجواء الظلام الذى يكسو مخدعها تحت أحد كبارى القاهرة ، فى مملكة الشوارع حيث لا قانون يسود ولا قيم ولا أخلاق ، دولة تعيش على الحكم الذاتى والتى تفتقد النظام وترسو الفوضى واللامركزية على ضفافها ، لم تقاوم ولم تشعر بشيئ خلاف المرة الأولى التى حدث فيها ذلك حيث قاومت كثيرا ودون جدوى تركت نفسها للجميع فهى حتى فى هذه المرة لم تدر من ضاجعها ، تحركت النطفة فى أحشائها وها هو الشارع ينتظر بائسا جديدا يضاف إلى الآلاف الذين لا مأوى لهم ، دولة لا تحابى إلا من يملك ، وهؤلاء لا يعرفون من الدولة سوى عربة الشرطة التى تطاردهم وهم يتسولون أو يبيعون المناديل فى الإشارات المرورية ، لا حق لهم فى هذا الوطن ولكن عليهم الكثير من الحقوق التى لا يملكون سدادها فحين تحدث جريمة ما هم أول من يدفع الثمن ، عالم غريب يحرم الفقراء من اللقمة ويزج بهم فى السجون حين يطلبون طعامهم من ذوى الطعام .

تمر الشهور والسنون ويأتى صاحبنا للدنيا لا يدرى له أبا ،كم تساءل عن أبيه وكان الرد من أمه كل من حولك آبائك فعينيك كعينى فلان وأنفك كأنف هذا وشفتيك

وشعرك وقدميك وكأنه كان مزيجا ممن قضوا وطرهم معها ، شب صاحبنا واختاروا له اسم " سعيد" ولم يكن له من اسمه نصيبا فقد كان بائسا تعيسا لا يرى فى نفسه ابن من أبناء التشرد يحتقر الأغنياء كما يحتقرونه ، يده السفلى يراها خيرا من أيديهم العليا فهو يطلب بتذلل وهم يعطون بتعال وكبرياء لا يعلمون أنهم أمناء على المال لا يملكونه فهم يجمعون ويتركون ليجمع أبنائهم ويتركوا ،على ضفاف النيل يجلس كثيرا ويفكر أكثر كيف أنجو من مصيرى .؟

ألسنا سواء كلنا بشر .. لماذا سكن أولئك فى البيوت ونحن من سكنّا خارجها .ألفظتنا البيوت لأننا لا نليق بها ، لاحظ الجميع شروده واتهموه بالكسل فهو لا يسعى لنيل لقمته وفى مجتمع ما تحت الكوبرى لا مكان لمن لا يأتى بلقمته هرب من نظرات من حوله من المشردين وحاول العمل فى أحد المحال التجارية ولكنه لا يملك أوراقا تثبت حتى سعيدا الذى لقب به فلا شهادة ميلاد ولا هُوِية له ،نبت ربانى لا جذور ولا أصول نادر هو فى دنياه ، لم يختر صاحبنا مصيره ولكنه كحال الكثير فرض عليه ماهو فيه ، حاول أن يمد يديه لكنه استحى ذهب إلى بعض الإشارات كى يتسول ما يقيم جسده ويحفظ قواه مد يديه وهو غارق فى الحرج ، جمع مبلغا من المال يكفيه للطعام فذهب لاحدى المحال وأتى بطعامه شرد كثيرا وهو يأكل ، تأمل الحياة وما آلت إليه فقد طرفت عين الدنيا عنه ، وعشقت غيره ،ملئت قصعته إلى أصبارها من هول ما يلاقى من عذاب دنياه ، وبينما هو فى شروده إذ بسيارة فارهة تنزل منها فتاة هى بالملائكة أشبه النوريشع من وجنتيها حمرة بلا خجل ونظرة بلا وجل وشفتان مخضبة بالأمل قال فى نفسه ماذا لوكنت من جلدتها وأهليها تنام تلك فى الحرير وتنعم بالدنيا التى تعزف عن أشباهى ، نزلت من سيارتها ومضت السيارة وتركتها لتمضى هى ناحية النيل قائلة للسائق تعالى إلى

بعد ساعة ذهبت لتقف عند ضفة النيل تشاهد انسياب الماء وجريانها فى وداعة ، وتتنفس هواءا نقيا تراه هو أجمل ما حدث لها فى يومها ، ولكن العود فى أرضه شيئ من الحطب فذاك النيل التى ترى فيه الجمال كله هو نفس النيل الذى ينام سعيد على ضفته تحت الكوبرى يرى فيه الظلام ، والنمل الذى يسرى بين ملابسه ليلسعه فى جسده ، ونقيق الضفادع الذى لا يغادر مسامعه طيلة الليل ، وقضاء حاجته لا يكون إلا فى النيل فكيف ترى فيه كل هذا الجمال ، ولكن تلك عادات البشر يمضون نحو ما أمتنعوا منه فإذا نالوه غضوا الطرف عنه وزهدوا فيه ،علق بصره بها حتى أنها لاحظت ذلك فابتدرته بالسؤال:

- ألك حاجة لدى ..؟

- لا شيئ سوى ان ...ولم يعرف ماذا يقول بعد ذلك .

تاهت الكلمات فى رأسه حين استمع لكلماتها وصوتها الرقيق الذى لم يسمع مثله قبل ، آثر صاحبنا أن يتابع من بعيد تلك الإضاءات لوجهها الصبوح وابتساماتها لما ترى من منظر خلاب أخذت تلتقط لنفسها بعض الصور الشخصية مع النيل وبينما هى كذلك إذ تدحرج الهاتف من يدها ليسقط أسفل الضفة وحال السور والأحجار بينها وبين هاتفها ، ورأى صاحبنا نفسه يجرى فيتخطى السور ثم حطه الجمال والهوى إلى أسفل الضفة ليلتقط الهاتف ثم يتسلق الأحجار ويتسور الحديد ليسلمها إياه ، شكرت له حسن صنيعه فطأطأ رأسه خجلا ، ثم سألته عن إسمه فأجاب فلم تنتظر حتى يسألها عن اسمها فقالت وإسمى أحلام وأخرجت من جيبها بعض النقود مكافأة له فأبى أن يأخذ شيئا فقد أخذ ما يكفى ابتسامة حلوة جعلته لا يطأ الأرض بقدميه تساءل فى نفسه هل من حقه أن يحلم بها أم أن الأحلام حِكرا على من يستطيع تحقيقها ، نأى بعيدا عنها مراقبا إياها وفجأة ظهر على الجانب الآخر من الطريق

سائقها أهكذا مرت الساعة التى حدثت بها السائق نظرت إلى صاحبنا بابتسامة ملؤها السعادة وأومأت برأسها تحييه تحية لم يرى أرق منها فى حياته ومضت كموجة داعبت الشطآن وعادت إلى جوف البحر ، أو كنسمة مرت غيرت طعم حياته للحظات وأفلت كالنجم لتتركه وظلام أيامه .

****

مرت عليه الأيام رتيبة ليس بها مسحة من سعادة سوى ما تبقى من ذكرى لقائها العابر ، أحس بعينيها إحساسا جديدا عليه ، جعل لحياته طعما جديدا لم يكن يشعر به من قبل ، ثمة إحساس جديد جعل الحياة فى نظره ليست مجرد لقمة فى جوفه ونعاس فى عينيه بل بدأ يشعر بجوع جديد فى مكان ما كان يعلم وظيفته ذاك القابع بين قفص من عظام يشعر فيه بدقات متسارعة وفكر وإنشغال وأمل فى رؤيتها مرة أخرى ، ظل ينتظر القدر أن يُسبل عليه العطايا برؤية مالكة الفؤاد وسارقة الحنايا ، وبعدما فقد الأمل فى لقياها يمر ذات يوم بين العمارات الشاهقة التى تضم بين حوائطها من يملكون فى الدولة مصائر من فيها ، ففى دولتنا صنفين مِن البشر مَن يملكون ومَن لايملكون ،والأول لا يشعر بالثانى بل يراه مجرد حشو لكراسيهم التى يجلسون عليها فلا مكان لدينا للفقراء الذين هم طين الأرض ومائها وأساس كل بناء فى الدولة فهى لا تبنى إلا على أجسادهم ،ولا يكون فيها الجزاء من جنس العمل بل الجزاء بعد العمل إهمالا وتهميشا .

أقول وهو يمر بتلك الشوارع لمحها بطلعتها المشرقة وهى تنزل من سيارتها الفارهة ومضى مهرولا إليها ولاقدمان تحملانه بل يطير والجناحين قلبه ، رفرف الطير القابع بين أضلاعه لم يدرى مايقول هل ألقى السلام عليها أم لا ؟ هل ما زالت تذكرنى أم أن الذكرى أنا من يستأثرها لنفسه ؟والعجيب أنها تذكرته ودار بينهما حديث يملؤه

الشغف والحب من لدنه، تجاذبا أطراف الحديث سألته عن حاله وأجاب بأنه بخير مادامت هى على ذلك ، أخبرها بأنها ما غابت عن خياله لحظة منذ أن فارقها فى المرة الأخيرة ، فتبسمت ..كان الرد منها بالإيماء والإبتسام لكنها فى أذنيه كلمات تملأ المعاجم والمتون ، آذنته ببينها فارتعدت فرائصه فلقد أوشك الحلم أن ينتهى ستمضى وتتركه وقد لا يراها مرة أخرى فربما لا تلعب الأقدار فى خلق فرصة أخرى للقاء ، أشارت إليه ملوّحَة بوداع فتعلق بصره بها وهى على نفس الشاكلة ، داخله يتمزق فما الذى يجعل القمر المحلق فى السماء يخلد إلى الأرض اللهم إلا أن تنعكس صورته على صفحة الماء راكدا كان أو جار ، مضت تعبر الطريق وهى تنظر إليه ولسان عقلها يقول فى أذنيها لا يمكن المضى فى تلك العلاقة فأهلى لن يسمحون لى بمثل هذا ، وبدون أن تشعر وبدون أن يتوقع صاحبنا اصطدمت بها سيارة مسرعة نُقلت على إثرها إلى المشفى وهى تتخضب دما وأشار المعالجون أنها تحتاج إلى نقل دم ، فما كان من صاحبنا إلى أن شمر ساعداه محاولا أن يتبرع بدمائه لمن وهبته الأمل فى الحياة ، تتدفق الدماء من أوردته لتسرى بعروقها مثقلة بحب ورجاء أن تشفى كى يرى ابتساماتها ليستمد القوة منها ، وبينما هو على ذلك جاء أبوها مهندم الملبس نقى البشرة أجش الصوت تظهر عليه علامات الترف ، نظر إلى صاحبنا نظرات ملؤها الإشمئزاز وقال للمعالجين كيف تجرؤن على أن تجعلوا مثل هذا يتبرع بالدماء لكريمتنا فأجابوه أن الدماء عامل مشترك بين الجميع فالدماء للفقير كغيرها للغنى وللكبير كالصغير مشتركون فى الدماء مختلفون فى الفكر والطبقات .

استفاقت جميلتنا وأول ما رأت كانت عينا صاحبنا المحدقتين والمملؤتين بالرجاء والتمنى ابتسمت فاستمد قوة أخرى علمت بأنه من تبرع بدماءه لها ، أصابه الشحوب وأحجم عن الطعام خوفا على حلمه الذى يكاد أن ينطفئ سراجه الوهاج ،

هجر متاع دنياه حتى يطمئن عليها، تبدلت حالته من صحة إلى مرض فما كان له أن يتبرع بالدماء فجأة ، فمثله قد بُلى بفقر الدم جراء عشقه وشروده تبادلوا الأماكن صار هو المريض وهى من ينتظر شفائه ولكن القدر دائما يفرض ما حاك من سيناريوهات، همد القلب الذى طالما خفق بجميلتنا وبرد الجسد الذى كلّ من معاناة الحياة ، وإنطفات العينان بعدما رسمتا طريق للأمل ، مات صاحبنا ولم تهمس له بكلمة حب ولكن كفاه أنه ذاق لذة الشعور به .

رفـــعت الجـــلسة

الليل المظلم يلقى بكآبته على الكهف المهجور ، فى قطعة ما على الارض كانت أو فى السماء يجلس جمع من الوجوه الكالحة والمتشحة بالسواد لا تكاد ترى على شعاع الضوء الباهت الصادر من مصباح متهالك سوى أشباح وجوه مكفهرة وأنياب بارزة وشعر طويل تلبد حتى صار كالصوف على ظهر الغنم ، ضحكات شريرة ورائحة هى بالجسد المتعفن أشبه ،متراصون على كراسى من حديد تشبههم إلى حد كبير فى الوضاعة والوقاحة ، ويترأس الجلسة أكثرهم دمامة ووقاحة فى المنظر عيناه جاحظتان هرمى الحاجبين كثيفهما وكأنه إستأثر بالدمامة والوقاحة لنفسه دون غيره يصرخ فيهم بصوت أجش :

- ماجديدكم ؟

- لا شيئ سوى الخزى سيدى . قالها من على يساره .

- وأنت ؟

- لا جديد لدى سوى أننا اجتمعنا اليوم للمشورة ، فأنت كبيرنا ورأسنا المدبر .

- من قال إنى رأسكم ؟ لقد زرعت فيكم نبتة لتنمو وتورق لأستظل بها وأستريح ، لا لتتلبد غصونها وفروعها لأظل طيلة عمرى أحمل همها ، هيااعرضوا علىّ الأوضاع فما رأيت فيكم حماسا ولا تكتيكا محكما .

- الموضوع فى بساطة أن منطقتى التى أهيم فيها ما عادت مرتعا للذات ولا ملاذا لخلق الفواحش لأنى أراهم فى رباط فمهما حاولت أن أوقع العداوة بينهم تخونتى الفرصة ويتغلبون على ليتهم ما علموا تلك الآيات التى تصم أذاننا ، أذكر حين أردت أن أفرق بين أولئك الأخوة زجروا وسوستى وتدخل حكمائهم فتعانق المتخاصمون وخسرت المعركة ، سلكت كل الطرق كى أشتت جمعهم ولكن دون جدوى .

فصرخ رئيس الجلسة قائلا : صه أيها الأحمق ، كيف استطاعوا إخماد الفتن أنا أجزم تماما أنك السبب ، فما إلتزموا وكملوا إلا بتقصيرك فى وسوستهم ونقصك وضعفك أمامهم ، ما زلت لا تعى ما أخذت على نفسى من عهد أنى سأغويهم ماداموا على وجه البسيطة ، أتريد أن أخسر المعركة ، أتريد أن نبقى بمفردنا فى النار ولا أنيس لنا ؟ وأنتم ما لديكم ؟

فرد الجميع أن حالهم كما سبق أن ذكر الزميل لا جديد فى ظل ما نرى من فقر وعوز من البشر فلقد صار الرجل يدور فى ساقية كى تُخرج القليل من المال وما أتيناك إلا للمشورة وأخذ الرأى .

فقال كبيرهم : بما أن كل خططنا واستراتيجياتنا قد ذهبت أدراج الرياح فإنى أرى أن نجند من أبناء البشر عملاء لنا فلا أقدر على إقناع البشر بما نريد سوى أخوانهم من الآدميين يعرفون بعضهم البعض ويراقبون ردة الفعل بجسد ناقد وبصير أما نحن فبضاعتنا الوساوس والكوابيس وتكتيكات عفا عنها الزمان فدعونى أحلل بعض البشر كى أنتقى المناسب منهم ليقوم بالمهمات الجسام التى نوكلها إليهم.

وينصرف الجمع على أن يدبر كبيرهم ما آلت إليه أحوالهم المزرية ، ويبدأ الكبير فى البحث حتى يجد الثغرة وهى النزاع على الأرض فاختار بعض المشردين فى الأرض

الذين لا مأوى لهم وأثار مشاعرهم تجاه أرضهم التى هُجروا منها أو بالأحرى نزح أبائهم منها فى معتركات الحروب ، ووسوس لهم بالعودة إلى تلك الأرض وأن لا ملاذ للمرء سوى الأرض التى ترعى فيها جذور العائلة ، ووجههم إلى أن الغايات أسمى ، ومن أجلها بذل الغث والثمين فلا حاجة لهم إلا للتمكين بالوطن ، زرع فيهم حلم الوطن وهم أبناء الأب الواحد تجمعوا لنيل حقوقهم من أخوتهم بالمكر تارة وبالحرب تارة حتى استولوا على الأرض وهجّروا من كان فيها من المسالمين ، ورأوا أن الجميع قد يتحدوا ضدهم فزرعوا البغضاء فى قلوب الأخوة فثارت النفوس لتنفث ريح الغضب وتسقط أمطار التشرذم والتمزق فيرى الأخ أخاه لا يلقى له بالا ويرون ما يحدث لأبنائهم من سحل وقتل وتعذيب ولا يحرك ذلك ساكنا لهم ، لم يقفوا عند ذلك الحد بل قسموا تركاتهم ووضع كل أخ بينه وبين أخيه حاجزا وحدودا ، وكل من له حدا يدافع عنه حتى الموت كى لا يُغير عليه أحد ، بل جعلوا لكل كانتون حُكما ومُلكا ومجالس شعبية ونيابية ومعتقلات لأصحاب الفكرة وسجون لأصحاب النَكرة ، وتتدرج المراكز والممالك حتى يعم الجميع مجالس عالمية يحكمها من ؟ أولئك الذين شردوا من قبل واستولوا على الأرض ، أى أنهم نصبوا أنفسهم سادات على العالم ، فرقوا حتى فى الطبقات فصارهناك أغنياء وفقراء ومعدمين والمسافة شاسعة بين هؤلاء مسافات اجتماعية وأخرى نفسية فلا يشعر من فى الطبقات العليا بمن دونهم ، شردوا الكثير ودمروا الأكثر وتدخلوا فى سياسات الدول أو الكنتونات ، بل وتدخلوا فى سياسة المنزل والحجرة ، استطاعوا وبقوة أن يفعلوا ما عجز عن فعله الأبالسة الكبار ، حتى أنهم غزوا وسائل الإعلام وهيمنوا عليها فإذا ما جرح أحدهم ثارت الدنيا ، وإذا ما تقطع غيرهم إربا قد يزيفوا حقيقة ما حدث كى يرى العالم أن الذين تقطعت أجسادهم وتهتكت أعراضهم وشردوا فى الأرض هم الجناة وأولى السلطة هم المجنى عليهم توسعوا فى أراضيهم وتعلموا الغزو الفكرى حتى

تصبغت الأرض بما أرادوا ، أفسدوا كل شيئ حتى صار من المستحيل العودة إلى ما كان عليه الأخوة .

وبعد فترة اجتمع الجمع مرة أخرى ولكن هذه المرة البسمة تملأ الشفاه وظهر كبيرهم وبدأ التصفيق الحاد من المجتمعين ، أحسنت كبيرنا هكذا هتفوا ، فرد فى تواضع :

أرأيتم أن هناك نوع من البشر هو أشد منا فى حياكة الشر ودفع الناس للتفرق وزرع الضغائن فى النفوس ، بشراكم اليوم أبنائى فقد زرعنا فى الأرض أشجارا للشر وما علينا سوى ريها وتهذيبها لتنمو ولا تركنوا إلى السكينة والهدوء فمن يدرى قد ينقلب الحال ولكن كفانا أننا زرعنا النبتة ، التى سنستريح فى ظلها وأبشروا فزبائن النار يزدادون يوما يلو الآخر ، ألكم حاجة تريدونها؟ فهز الجميع رؤوسهم بالنفى ، فصرخ بصوت أجش : إذا .. رفعت الجلسة .

أشـــــــواك

ليل طويل تمر ساعاته طوال كليل تهامة ، جبال من الدقائق ودقات العقارب مطرقة تدق فى رأسى كأنها تغيظنى أن الدقائق ثقال صمت فى كل مكان ، ولا شيئ غير أصوات البعوض الطنان حولى وكأنها تريد أن تحكى لى سرا لا يحلو لها الطنين إلا فى أذنى كل من حولى نيام إما من التعب أو من مسكناته ، مر على ثلاثة أيام وأنا على تلك الحالة لا أحد ممن يعرفنى أتى لزيارتى ، وكأن العلاقات بين الناس مبدأها القدم ، فأنت فى خير ما دمت تقف على قدميك والكل حولك وحينما تكون طريح الفراش لا شيئ حولك سوى الداء والألم ، حتى الهاتف يدق فقط لمن يريدون الحاجة وحينما يعلمون بما أنت فيه لا تجد منهم سوى الدعاء لك بالشفاء ، ليت الليل ينقضى ويأتى النهار كى أرى من حولى يتحدثون ، الصمت القاتل يحاصرنى وأجد فى النهار شيئ من السلوى حين يأتى لمن حولى ذويهم نساء وأطفال يحدثون شيئ من الجلبة التى أشعر فيها بالإطمئنان ، فأنام أخاف الليل وزواره حتى لو اننى اختلست لحظات من النوم حاصرنى أولئك الذين قضوا نحبهم من أصدقائى وأهلى ينادوننى من العالم المجهول ، حتى أنى حين أصحو أرى أشباحهم تتراءى لى على جدران محجرى ، ولعل الجلبة التى تحدث نهارا تزعجهم فلا يأتون فى أحلامى ، لست متمسكا بالحياة كثيرا فلا شيئ فيها يجعلنى أتمسك بها ، ولكن تلك طبيعة البشر يفرون من الموت على الرغم من انه الحقيقة القاتلة والتى لا مفر منها ،

وشيئ آخر بالنهار أريده تلك الممرضة الجميلة التى تهتم بى ، عيناها الجميلتين وقوامها الممشوق وأضلاعها التى تحوى قلبا يُكن لى كل حنان وعطف ، حينما تأتى لقياس ضغطى أتمنى لو أن شمسها لا تغرب عن وجهى ، ثلاثة أيام فقط منذ أول يوم رأيتها لكنها تعدل عندى ثلاث سنوات من الوله بها كم هى رقيقة وجميلة ، ليتها هى من تأتى فى نومى بدلا من تلك الجثث .

ها هو النهار يقترب لا الشمس التى فى السماء أنتظر بل الشمس التى تشرق لدقائق فى غرفتى ثم تغرب لساعات وتعود لتشرق فى نهاية اليوم وتغرب أخرى لتعود فى اليوم التالى ، هيا فلتدورين أيتها العقارب اللعينة حتى ياتى صباحى المميز وتشرق شمس الغرفة وتدخل هى بابتسامتها الجميلة كوردة تفتحت لتوها ثلاثة أسرة تمر عليها قبل أن تاتينى ، حتى تلك اللحظات أكرهها ، هاهى الآن تقترب .

- صباحك سكر

- صباحك أجمل

- كيف حالك اليوم ؟

- أجمل حال ما دمت هنا

- ما هذا الكلام الجميل ؟

- من جمالك تأتى الكلمات ، لم أنم فى ليلتى من كثرة التفكير ، ليت أنك تعملين ليلا حتى أراك .

- لقد هانت أيام قلائل وتخضع لعملية جراحية وبعدها تذهب لبيتك وأولادك

- لست متزوجا ولا أولاد لى .

- لهفى عليك وحيد أنت فى الدنيا ؟

- منذ الشباب وقد توفى والداى فى حادث وعشت بمفردى

- قد تكون الوحدة هى سبب ما أنت فيه فمعظم الأطباء يرجئون تلك المشكلات الصحية إلى الحالة النفسية للمريض

- وانت ؟

- أنا لدى عملى وسأذهب إليه لأعود إليك فى آخر النهار كى أتفحصك .

ومرت بعيدا وتركت صاحبنا يتلوى لا من ألم المرض بل من الجوى توافد الزائرون وكعادة صاحبنا لم يأت لزيارته أحد فاسترخى متأهبا للنوم ومازال خيال ممرضته يتراقص أمامه ، حينما يتعافى سوف يذهبان بعيدا يتزوجها وينجبا أطفالا ، لا لا يريد أطفال بل سيبقى هو وهى لا ثالث لهم ، نام على ما كان يفكر وملأت أحلامه حبا وعشقا وبيتا سعيدا على حافة النهر زقزقة العصافير تملأ الأجواء وصوت المراكب وهى تمخر عباب السماء و تطل عليه ببسمة مشرقة وتُعِد له إفطارا جميلا كوجهها وعيونها، يقطف الورود من حوله ليضعها فى إصيص وتتقافز الفراشات على الورود فى منظر خلاب ، والحمام يتطاير يمنة ويسرة ثمة شيئ ما فى يده يوخذه كوخذ الإبر ، يستفيق من أحلامه على إحدى الممرضات تضع له محلولا فى الكانيولا التى فى وريد يده ، ليته ما صحا من نومه ، وترى إن عاد إلى نومه هل يعود إلى ما كان عليه من احلام ؟ كلا لن يحدث فقد ضاعت اللحظة الجميلة التى كان يعيش فيها كما لم يعش من قبل .

سأل عنها فلم ترد عليه بغير ابتسامة ، ثم أخبرته بأنه سيخضع نهارا لعملية فلابد له من الإستعداد ، ترجاها أن تكون جميلته هى من يطببه قبل دخول العملية فأجابته

أنها ستكون موجودة فى النهار ، وسأل لماذا لم تأت ليلا ؟ فأجابته أن زوجها غيور لا يحب أن تبيت زوجته خارج دارها .

تعجب صاحبنا وكاد أن يموت كمدا ، أهى متزوجة إذا فنصف الحلم ضاع ، أحس بغصة فى حلقه وألم فى جنبه وكاد ان يغشى عليه ، لكنه حاول التماسك قليلا ، ودار فى نفسه حديثا ماذا يضيرنى إن كانت متزوجة ؟ فأنا لا أريد منها سوى الحب ، حتى الحب من ناحيتها لا اريده فكفانى أن احبها انا ، ثم تدرج نازلا فى المطالب حتى وصل إلى أنه لاداعى للحب فيكفينى منها ابتسامتها التى جعلت لحياتى فى ذلك المشفى قيمة ، حانت الساعة الحاسمة وأتت إليه ، بنظرتها الجميلة وإبتسامتها الحانية كانت كبلسم وضع على جراحه ، ذهبت جهود أطباء التخدير سدى فنظرة واحدة منها تليها جرعة من الابتسامة جعلت الحياة لديه شيئ آخر فلو أنهم قطّعوا جسده لن يشعر فالتخدير من عينيها أقوى .

دخل فى غيبوبة بعد خروجه من العمليات فلقد كانت جراحته قوية حيث تم إستئصال ورم بالدماغ تعرض بعدها لحالة من فقدان الذاكرة ، ومن حين لآخر كانت تمر أمامه وتصل أحيانا عنده مانحة إياه بسمات عديدة ولكن دون جدوى فما عاد يذكرها ولا حتى إبتساماتها وعينيها كل شيئ لديه قد محاه المرض ، أى حكمة تلك التى تجعل من حلم اليوم وواقعه مجرد صفحات تطوى فى بوتق النسيان ، ترى هل تستحق تلك الدنيا أن نطيل الأمل فيها .

لن يأتـــــــــــــــى

صباح يملؤه الدفء ترقزق فيه العصافير مبتهجة بلون السماء ، ليل الشتاء طويل ونسمات الصباح التى تُجمل عبيرا دافئا ، تأملت وجه السماء فوجدت به سحبا كثيفة تنبئ عن أمطار قادمة ، شتاء جديد بلا دفء رجل ، عاشت حياتها تتعامل معهم كأصدقاء وأخوة لا تتعدى علاقاتها كونها أخت لهم ، خزائن أسرار تعيش معهم آلامهم وأحلامهم نسيت أنها أنثى لها قلب ومشاعر تتمنى فى عمرها ان يشعر أحدهم بها ، كم رسمت لنفسها قصصا تكون فيها الملكة التى يرنو إلى النيل بها جميع الرجال ، كم عاشت فى قصص حب من طرف وحيد ، آلت فى نهاية المطاف إلى أدراج الذكريات ، تعيش دور الزاهدة وهى التى تتضور جوعا لبعض الحنان ، يمزقها الحبور إلى حضن دافئ تلقى فيه بكل مشكلاتها وآلامها.

بينما هى فى شرودها إذ بوقع اقدام على سلم البيت متجهة إلى أعلى نقطة فيه حيث تسكن هى فى الطابق الاعلى بالمنزل فى حجرة متواضعة تواجهها غرفة أخرى أبسط منها يسكنها شاب فى عقده الثلاثين ، شاب غامض لا يتكلم مع أحد حتى حينما تقل الماء لديه لا يشكو ولا يتحدث إلى أحد ، وكأنه قد رأى فى صمته ملاذا من مشكلات الناس فبعدك عن الناس ممن حولك قد يكون له فائدة عظيمة فهناك مسافة ما بينك وبين من حولك كلما اقتربت المسافات قلّ الإحترام والتقدير ،

فالمسافات البعيدة تزيد الاحترام وكلما اقتربت خطوة كلما اتسعت الفوارق وكُشفت خبايا النفوس فمن كان يناديك بالأمس بلقب رفيع صار اليوم يناديك باسمك ومن كان بالأمس يعلى قدرك صار اليوم صديقك الذى ينهرك ويوبخك أحيانا ، كان ذاك منطق صاحبنا .

بادرته بالسلام لم تسمع منه سوى همهمة لم تفهم أرد عليها جوابا أم أنه تذمر من تطفلها ، لم تشغل به بالا ومضت إلى حجرتها المتواضعة التى وضع على حوائطها صورا لمطربى الرومانسية فهى تعيش قصة داخلها ، فى كل مرة يدلو فيها صديقا أو صديقة بدلوه فى براثن بئرها الملئ بالأسرار تعيش معهم قصتهم حتى النهاية تفرح لفرحتهم باللقاء ، وتبكى كبكائهم على الفراق ، فى كل قصة تعيش دور المراقب عن بعد بلا رتوش منها سوى التوجيه كأنما هى من يملك الخبرة ، تود كثيرا لو أنها فى مقام الفاعل أو المفعول به لا تحب الجار والمجرور أو المضاف إليه ، تذكرت نظرة الشاب الذى مر بها الآن بشعره الناعم ووجهه الطفولى ونظرات الريبة والهروب التى تكسو عيناه ذات اللون العسلى ، ماذا لو اخترقت حياته ؟ قد يكون فى قصته معنى ، وماذا لو وضعت خبرتى فى القصص وحلها لأخفف عنه وطأة الوحدة ، قررت فجأة أن تخترق الحاجز وتدخل عالمه كى تعرف ماذا دفعه للعزوف عن البشر ليظل وحيدا فى حجرته .

طرقت باب حجرته وسمعت خطوات أقدامه تقترب من الباب ، فتح الباب رمقها بعينيه ولم ينطق بكلمة سألها بلا سؤال ، فابتدرته بالإجابة أنها تريد فقط المكواه لأن جهازها قد تلف ولديها موعد مهم وبينما هى تتكلم إذ به يتركها ليأتى بما أرادت ويدفعه إليها بلا شفتين تنطقان ، وما ان تمسك بالمكواه إلا ويدفع الباب مغلقا إياه فى وجهها ، شعرت بالحرج من نفسها أمام نفسها وتلفتت يمينا ويسارا كى ترى إن

كان أحدا قد شاهدها على تلك الحالة من الحرج ولكنها اطمأنت حيث لا أحد هنا أو هنالك ، لومت نفسها كثيرا على أن طرقت عليه الباب ثم تسللت لحجرتها فى صمت مخزى ، ليتها لم تذهب إليه ، أية فكرة حمقاء تلك التى دفعتها لإختراق حجرته ، وكيف يكون موقفها الآن أمام نفسها ليتها ما أقدمت على تلك الخطوة ، ومازالت تلوم فى نفسها حتى طرق الباب ففتحت وهى غارقة فى شرودها إذ به على الباب جاء ليعتذر قائلا لها :

سامحينى إن كنت عديم الذوق معك ، فأنا فى هذه الأيام شخصين فى شخص أفعل الشيئ المشين ثم لا املك أن أعتذر .

فردت :

على الرحب والسعة ، هل لك باحتساء كوب من الشاى ، فاومأ بالإيجاب ، فدعته إلى حجرتها المتواضعة ودخل الحجرة تدور عينيه فى أركانها وكأنه يحلل شخص من يسكن بها وقال :

يبدو أنك تعيشين بمفردك .

- نعم تلك حياتى التى أعيشها منذ أن توفى والداى فى حادث أليم وتركت بيتنا القديم فى ظروف قاسية كان أبى قد استدان من عمله مبلغا وتوفى بعدها فتم الحجز على البيت الذى ضم طفولتى وشبابى فغادرت بلدتى لأمكث هنا لسنوات ، وأنت ما بك ؟ أراك متجهما وحيدا لا تتكلم مع أحد ولا تصاحب أحدا ؟ سامحنى على تطفلى لا أدرى ما دفعنى للحديث إليك ولك الاختيار فى الإجابة والرفض .

- لا على العكس تمزقنى رغبة ملّحة إلى الحديث إليك فلقد تكتمت العناء حتى أن الكأس قد إمتلأ وفاض عن جانبيه ، وأرى فيك سعة الصدر لإحتوائى بل كل ما أخافه هو أن تملى من حديثى معك .

- سيدى لقد عشت زمانا طويلا أسمع أصدقائى وزملائى وما استمع إلّى أحدهم ، آذانى مصغية إليك .

- تبدأمأساتى حين كنت فى ريعان الصبا فى إقبال على الدنيا ، لا شيئ فى نفسى سوى الإنطلاق ، أجلس إلى الاصدقاء فأسمع حكاياهم عن العشق وآلامه ، وتباريح الجوى التى تلهب الأضلاع ، كل الكلام والسمر فى تلك الأمور ، ليس لدى سوى أذنين تسمع بلا شفتين تتحدث ، حتى جاءت اللحظة التى كنت أتمناها حينا وأهابها أحيانا ، كان أحد أصدقائى يعيش قصة حب ملتهبة ولكن ضنت عليه الدنيا بالسعادة حين تبدلت الاشواق بينه وبين محبوبته إلى صد وإعراض ، والتمس منى التدخل فيما بينهم لمعرفة الأسباب التى أدت إلى القطيعة والبعد ، فقابلتها وسألتها عما قد حدث بينهما من تجافى ، وعلمت منها أنها قد تسرعت فى اختياره حيث أن الحب بينهما غيّب العقل فصارت لا ترى به عيبا ، حتى كانت جلستها مع ذاتها فاتضح لها ما فيه من نقص وعيب ، طالت جلستنا لساعات طوال ، لا أخفيك سرا كنت أستأنس بها وشعرت أنها آنست بلقائى ، ولابد لكل بداية من تتمة فابتدرتنى فى نهاية الحديث بسؤال جعل فرائصى ترتعد من هول ما سمعت ، ما كنت أشعر وأنا أحدثها إلا بكل أريحية ولكن يبدو أننى تجاوزت الخطوط الحمراء حيث أنها وبدون علل واضحة أعجبت بشخصيتى التى رأت فيها ما قد توارى من مميزات صاحبى ، قالت : أتدرى أنى الآن رأيت فيك ما لم ألحظه فيك من قبل ؟

رأيت فيك ما كنت أفتقده فى صديقك ، سعة الصدر وإحتواء الأزمة ، وبالرغم من الإطراء الذى هطل على مسامعى إلا أنها كسهام سامة اخترقت جسدى فما موقفى الآن والهاتف يدق من قِبل صاحبى ليعلم بالمستجدات ، لا أدرى ما أقول له ؟،ءأخبره بما جرى وأترك العاشق يتهمنى بسحب بساط الهوى من تحت أرجله أم أوارى سوءتى وأطفق أخصف على من ورق الحياء لأُكتب للمرة الأولى فى حياتى كخائن لصديقى ؟

انتهت الجلسة الأولى وأخبرت صديقى أنها تحتاج بعضا من الوقت كى تتصالح مع نفسها وتقيّم أوجه العلاقة ، وامتثل صديق للمهلة المحددة وهو يمنى قلبه بلقاء معها كى تعود كما كانت على عهدها القديم ، وبينما هو فى انتظار الشراع كنت أنا وهى قد بنينا جسرا للحديث نرسو إليه ، كنت أنا الخائن وهو الضحية ، أهرب من لقاءه ومن الحديث إليه ، أخاف أن يرى فى عينى سرا قد أخفيته فى جنباتى كمن يمضى إلى حتفه رغم أنفه سرت فى ذاك الطريق ، كعادة البشر يتطلعون إلى المنيع الشاق ولو أن الحب صادفنى فى سلاسة ويسر ما كنت تشبثت به إلى هذا الحد ،عشنا سويا سنوات من الحب والعاشق المهزوم لا يفقد الأمل ما زال يطارد فيها أحلامه وآماله ، إلى أن جاءنى يوما ليخبرنى أنه على موعد للقاءها غدا على حافة النيل فقد هاتفته أنها تحتاجه وذهب صاحبى للقياها وكنت أنتظرهما معا ولكن فى خلسة ، ورأيتهما يلتقيان ويتصافحان بل يتعانقان ويلف يده حول خصرها مستقبلين مياه النيل مستدبرين الناس وأنا أنظر فى ألم ، خناجر تلك وليست ضلوع ونار تلك لا شمس شعرت بأن كل شيئ صار ضدى ،ترى ماذا دار فى عقلها ؟ وما الآن فى قلبها ؟ أظنها بلاقلب بلا إحساس ،كطفل بكى كثيرا كى يظفر بلعبة ظل

يلهو بها إلى أن ملّها فتركها ، كنت أنا اللعبة ومن يومها وأنا أعتزل الجميع ، لا أرى فى الناس غير حب زائف وبشر لا يشعرون

تأثرت صاحبتنا بكلماته وحاولت جاهدة دفع الحزن عنه ، وصادف ألمها ألمه وقالت له :

قد تؤلمنا الحياة كثيرا لكنى أرى أنك من وضع نفسه فى غمار المعارك ، من منا لا يحنو لضمة من شعور ، ولكن هوّن عليك ماكانت لك فى الأساس ، فلم تبكى على شيئ لم يكن لك ؟

فقال : أعرف انى قد تعديت الحواجز وعدوت خلف المحال ، ولكن من منا يمتلك فى الحب إرادة نُسير إلى الحب بدافع من قلوبنا التى لا تحسن دراسة الامور ، فلو ان العقل هو الذى يقودنا للحب لكنّا أفضل حالا . يبدو أنى أزعجتك بمشكلاتى ولكن الدفء إذا إلتقى بالبرد هدأ وسكن ، فكنتى لى الدفء وكنت لى السامع الأمين الذى ما فكر فى لحظة مقاطعتى فسالت الكلمات منى فى لين إليك فشكرا لاستماعك .

فردت : لا عليك صديقى فأنا استمتعت فيما استمعت .

وغادر صاحبنا الغرفة تاركا لها أملا جديدا فى الحياة ألا وهو مساحات من الود والحديث الحسن الذى تكرر كثيرا ولم يتوقف عند هذا الحد بل تبعه لقاءات فى الحجرة ولقاءات خارج الحجرة بل وخارج المدينة فى المقاهى ودور السينما وتفاقمت العلاقة حتى تعدت مرحلة الصداقة بل والتعود أيضا صارت حبا.

أصبح لقائهما شبه يومى بل وقد يتكرر لأكثر من مرة فى اليوم ،مرضى ورأوا فى الحب علاجا يؤخذ لمرات خلال اليوم الواحد ، وكان ذات يوم إلتقيا فيه وتحدثا

كثيرا وبينما هم كذلك إذ بسيدة جميلة الوجه ممشوقة القوام تمر أمامهما تبتسم فى وداعة إلى صاحبنا الذى ارتبك لحظة تلاقى العينان ، لاحظت صاحبتنا ما شابه من إرتباك فسألته عنها ، فزاد ارتباكه ولم يرد .

فآثرت أن ينتهى اللقاء بتعللها بالتعب من جراء عملها نهارا وسهرها بالأمس ، وتفرقا وبينهما شيئ فهو الشارد التائه الهارب من شيئ ما وهى المتأثرة بما تهرب من الرد عليه ترى من تكون ؟ ، وهل لى الحق فى سؤاله عليها ؟ ظلت ليلتها لا تنام حتى طلع النهار وكان أول ما فعلته أن دقت عليه الباب لتسأله عما أرقها فى ليلتها ، هرب كثيرا من الإجابة ولكنها تيقنت من أنها تلك القصة التى لم تنتهى بعد حب قديم قد خرج من الأجداث بعدما ظنت أن الثرى قد واراه ، هل كانت مخطئة حين ظنت أن الحب قد يأتى إليها ، وفى المساء وعند ربوة على ضفاف النهر كان اللقاء بين الحبيبة القديمة والحبيب الملهم ، رأتهم صاحبتنا يتبادلون اللمسات والضم ، فعادت أدراجها إلى حجرتها منكسرة مهزومة وعلمت أنها مهما عدت خلف ذاك الحب فلن يأتى .

عاشق الروح

أحب الليل حيث الهدوء وقد نام البشر ، شعور لذيذ ان تكون فى عالم وحدك ترسم كل تفاصيله لا أحد ينغص عليك حياتك ، أو يجبرك على تغيير مسارك كما يحدث لنا فى النهار ، أجلس كثيرا أمام المنزل نهارا ما بين غادٍ ورائح ، كلٌ يهون إلا تلك المرأة الشمطاء التى تثقلنى بطلباتها المتكررة فتارة تريد شيئا من البقال ، وتارة تريد أوراقا من المصالح الحكومية ، ونظرا لعيشها وحيدة ، فمنذ أن خرجت للدنيا لا أعلم لها أهلا ولا أبناء تعيش فى حجرة مظلمة على ضوء فتيل لا يكاد يبين شيئا إنحنى ظهرها من حمل الزمان عليها ، تجعد الوجه الذى ما ظننته يوما كان له نضارة ، تضاءل البصر فى عينيها فلا ترى إلا لماما، تعيش على ما يهبه لها أهل الحى من عطايا لا أخفيكم سرا هى من أولى العقبات التى تواجهنى فى نهارى لذا أنا أحب الليل .

وكثيرا ما كنت أهيم على وجهى ، بلا أهداف ، تسوقنى قدماى إلى لاشيئ ، تارة أمضى بين الحقول ، وأخرى فى المقابر ولى فى ذلك الكثير بنفسى فالحقول أعذب ريقا وأفضل طريق ، نقاء وخضرة ، والمقابر صمت جميل وسكون لا تليه العاصفة ،

أناس خلوا من الدنيا وخلت بهم الحياة ، يعيشون فى دار النعيم فمهما كان ما يعانون من جناية ما ارتكبوا من ذنوب ، إلا أنهم فى رغد من العيش فيكفى أن عدّاد ذنوبهم قد توقف ، خلافنا نحن التائهون حاملى الذنوب نعيش فيها كاليهودى التائه كاتافيلوس ولكن الفرق بيننا وبينه أنه يأتى للعام المائة ثم يعود شابا لكننا يخط فينا الزمان مشيبا ، ونتوءات وحفر وتجاعيد وآلام ، وأمراض وأفواه خربة بلا أسنان ، هذا ما نجنيه من حياتنا البائسة ، أقول أخذتنى قدماى إلى الحقول ولكنى فى تلك الليلة قد خرقت نواميس حياتى ، فدائما ما أهيم عصرا ، وفى ذاك اليوم جاءنى التيه متأخرا ، فزحزح نفسه إلى الليل ، ولا اخفيكم سرا أننى قدمت على القبور لكنى تراجعت لحاجة فى نفسى ، ولم أوارى ما شعرت به ؟ سيدى القارئ أعلنها على عينيك بشجاعة ، ملأنى الخوف ، ومن منا لا يخاف ونحن من رُبينا على القصص المفزعة التى كانت سواءا عن عمد أو بحسن نية سلوى لنا فى شبابنا فحينما يدحمس الديجور نلتقى فى شوارع قريتنا الصغيرة التى تنام نومة أهل الكهف بمجرد الإنتهاء من صلاة العشاء لا سيما فى ليالى الشتاء ذات البرد القارص ، نجلس فى الأزقة والشوارع الضيقة تحت ضوء شحيح يبدو كنجمة لامعة فى السماء ، وما حولنا سوى الظلمة والقُر ،لا نجد لنا ملاذا سوى أن نتمادى فى سرد الحكايات المخيفة عن العفاريت العظام ، كصاحب المحراث ، وأم الشعور ، وغزلان والعديد العديد من القصص التى كنا نستمع إليها مجددا فى كل شهر تقريبا ،موروث ثقافى ورثناه عن أبائنا وأجدادنا ، لم يكن هناك أحد فينا يدرى ما نتحدث فيه ، ولم يرى أحدنا شيئا مما أسهبنا فى الحديث عنه ، وكعادة الآدمى يبحث عما يؤذيه فالفلفل الحار يؤذينا ويلهبنا ولا نستطيع الأكل بدونه ، كنا آنذاك نتلمس الخطا معا حتى نصل لبيوتنا فلا يستطيع أحدنا أن يذهب إلى بيته بمفرده مخافة أن يخرج إليه بعض من أبطالنا سالفى الذكر وإن فكر أن يذهب إلى منزله منفردا تطارده أشباح وأصوات

ونجوم تتساقط من السماء ودقات قلب لا تتوانى عن الدق حتى أنها تُسمع من فى القبور ، كل ذلك مما يترآى لنا فى طريق عودتنا للبيت .

ومن مخزون الماضى تشكل الحاضر فأورثنى خوفا ليليا من المقابر وساكنيها ، هى نسبية حقيرة ففى وضح النهار أهيم بها وفيها وبالليل اخشاها وارهبها ، أعود إلى ليلتى تلك التى دلفت فيها بين الحقول أسمع حفيف الأشجار وطرقعة اوراق الذرة حينما يصطدم بها الهواء وخرير الماء فى الجداول ، كل شيئ مسموع ولا شيئ يُرى أصوات فقط ،حدثتنى نفسى أن أعود ،ولكن شيئ ما دفعنى للمضى كمن يصارع ضدان فى نفسه وفى النهاية عزمت فى نفسي أن أخضع لنداء العودة ، واستدرت عائدا للقرية ولكن صوتا ما جعل أقدامى تتصلب فيها الدماء ، صوت ما يناديني بإسمى نبرته كصوت أمى ، اندهشت كثيرا مما سمعت فأمى لم تزل فى خدرها نائمة تنتظر نهارا مشرقا ، لا تعلم عن الليل كثيرا غير ساعات أولى تعد فيها العشاء ليأكل الجميع وتنام وقد أدت ما لديها وما عليها غير أن الأشقياء مثلى قد يعودون متأخرا فيدقون الباب فتقوم لتفتح الباب ثم تعود للنوم لا هى شعرت بمن جاء ولا أحست بما حدث ، خِلتنى تهيأت ذاك الصوت فتقدمت لخطوتين وقبل الثالثة سمعت نفس الصوت وبه سحر يجذبنى وكأننى جسد بلا إرادة ، مضيت إلى حيث يكون الصوت ، لا خوف بداخلى فقط مجذوب نحو السحر ، لا حيلة لدى فى الرجوع ورأيتها ، جمعت بين شتى مناحى السحر والجمال ، عينان خضراوتان وقوام ممشوق وبشرة صافية نقية ، شعر كالحرير ينساب على كتفيها ، حمرة خجل تكسو ملامحها الدقيقة ، وشفتان بهما جحيم ونار مؤججة تدفعك للنيل بها ، وجدت نفسى أقترب منها أكثر فأكثر وكلما إقتربت شعرت بحرارة شوق فى جسدى ، أصبحت فُتاتا من الحديد يساق إلى جذب مغناطيسي بلا حول ولا قوة ،وكلما اقتربت أكثر

من ذاك الجسد المرمرى أحسست برغبة ملّحة لضمها بين أحضانى وبطبيعتى البشرية حاولت احتضانها، لكنى لم أجد شيئا فراغ دافئ يحيطنى ،وصوت أكثر دفئا يقول لى : لن تنال ما تريد إلا بحالتين إما أن تكون معى طيفا عابرا ، أو أكون معك جسدا آدميا والثانية أصعب من الاولى فهل لك أن تتخلى عن جسدك كى تنالنى ؟

انزعجت من السؤال ووليت هاربا إلى قريتى وشعور ما يتملكنى بالرهبة والخوف ، هل جاءت إلى كى تقبض روحى أم أن ذلك من بنات أفكارى ولم يكن هناك شيئا من الأساس؟

بت ليلتى تلك وأنا فى قلق وخوف سكون الليل كان أشد على نفسى من الجلبة التى أكرهها عند حلول الفجر ، لم أنم فى ليلتى تلك وداعب النوم عيونى عند بزوغ نهار اليوم التالى ، حتى تلك الساعات القلائل التى اختطفتها فى نهار اليوم ، وقمت فيه وكلى شوق وفضول لأن أسترجع الموروث القصصى الذى تكون لدى من خرافات القدامى وترهات الأصدقاء ، ترى هل كان حلما ذاك الذى رأيت ليلة أمس ؟ أم كان خيالا من خيالات الخوف الذى ترتعد له فرائصى كلما حل الظلام على ؟ تسابقت الساعات والدقائق وأتى الليل يحمل فى طياته نسيما عليلا ، وأشقى فى جنباتى بفضول قاتل للتأكد مما صادفت ليلة أمس ، عدوت بخطوات مسرعة إلى حيث كنت فى ليلتى المنصرمة ، تقدمت أكثر مما قد تقدمت ، لكن شيئا ما لم يحدث ، وكأنى والخيبة صنوان ، لا جديد سوى حفيف الأوراق ، وصرير يصدر من الماء ونقيقا لضفادع المجارى ، وددت لو صرخت من داخلى علّها تحنو لنداءاتى ، لكن لا جديد.

تلمست الخطا عائدا للقرية كمن عاد بخفى حنين ، لا شيئ سوى الرغبة الضائعة ، خُيل إلى من فرط شوقى أن الصوت يناديني ، ولكنى تجاهلت النداء لعله صدى صوت البارحة ، لكن الصوت تردد ثانية وبكل قوة وشعرت بأن الروح قد دبت فى عظامى النخرة ، عُدت بلا عقل جسد يجرى نحوها هى نفسها ولكن اليوم برونق جديد ، وعطر أخاذ جميلة هى جعلتنى أزهد فى بنى جنسى لأهرول خلفها ، اقتربت منها أكثر ، رغبتين تنازعا رغبة فى الضم وأخرى للثم الشفاه الملتهبة ، لكنى وجدت نفسى عاجزا عن تنفيذ الرغبتين فلا هذه أستطيع ولا تلك لى القدرة عليها وجدت نفسى أحتضن الفراغ ، وسمعت صوتها الرقراق ينساب إلى مسامعى قائلة لى : لن تستطيع أن تلمسنى إلا فى حالتين الأولى أن تفارق روحك الجسد لنلتقى روحين ، أو أحل فى جسد أنسية فتجد الجسد ملء العين والبصر واليدين ، حتى تلك الأمنية التافهة صارت معضلة ، ونسيت أن أسألها إن كان للقيا بيننا تكرار أم انها منحة تقذف إلى كلما راق لها ذلك ؟

ضدان فى جنبى يتصارعان كيف وحولى من حولى من الإنسيات أن أختار ذاك الشبح ، وماذا علىّ أن أختار ؟ أنزع روحى من جسدى ؟ لكنه كُفر بنعمة الله فمن يهب الروح أو ينزعها مالكها ونحن على الأرض لا نملك شيئا ، أم أنتظر أن تكون التضحية منها ، تحينت الفرصة مرارا إلى أن إلتقيتها ذات ليلة فبادرتنى بالسؤال : ماذا اخترت ؟

فأجبتها : لا أستطيع أن اودى بحياتى إلى المهالك وغضب الله .

فقالت : إذا ننتظر حتى يخلو جسدا من روحه كى أحل فيه .

وانتظرت كثيرا كلما مرت أمامى أنثى جميلة أشعر أنها الروح التى مُنحت للجسد ، خاصة بعدما علمت من شبحى الجميل انها لن تغير فى الجسد الذى تحل فيه ، فتمنيت أن يكون الجسد الفارغ الذى سيستضيف روحها جميلا بضا لا عوج فيه ولا ترهل ، كلما ابتسمت إلى غادية ظننتها هى وبينما انا فى شرودى إذ بالسيدة العجوز تقبل إلى ظننتها كعادتها ستثقلنى برغباتها التى تعود على جسدى بالشقاء ، ولكنى صُعقت حين سمعت صوتا حنونا شابا يخرج من بين شفتيها المشققتين ، ووجهها المجعد ، يقول : ها قد أوفيت بوعدى حبيبى وأتيتك فى جسد البشر ، ولم أدر شيئ سوى ما حكاه الناس لى فقد أسقطت مغشياعلى من هول ما رأيت ، لعنت اللحظات التى تمنيتها بشرا ، لعنت كل من نادى بعشق الروح ، وأتحدى كل من تشدق بأن عشق الجسد مصيره الفناء وعشق الروح هو البقاء أن يلثم فاه تلك العجوز ولو للحظة .

شـــــــــــــقاء

لم أعد أراه منذ زمن بعيد ، أكثر من عشرين عاما مرت على دون أن اراه ، تُرى هل مازال على شاكلته جسد نحيل وأنف دقيق وسمرة وجهه وأسنانه البيضاء اللامعة أم أن السنين الطوال قد غيرته، سمعت به اليوم أنه قد عاد من حيث كان ،فقررت أن أجر الخطى إليه كى ألتقيه ، وفى طريقى إليه تصادمت فى قدمى قطع الطوب والحجارة ، وتصارعت الذكريات حثيثة فى رأسى ، أذكر كم كان شقيا ، تعس المعيشة لكنه يغالب مافيه من فقر وعوز بالضحك والانطلاق ، ما رأيته يوما كباقى الخلق يفكر فى مجريات الزمن ، لكنه دائما يفكر فى المزاح والضحك وكيف يحيك الخطط التى تجعلنا كما كان يقول " نفطس من الضحك " كان دائما يدفعه الانطلاق إلى غير المالوف يتصنع السبل ويدبر المصائد وينصب الشباك ها هنا وهناك كى يرى فى شفاهنا البسمة ، خفيف الظل ،ما وجدته يوما شاردا إلا لنيل غرض ما .

فقره ما كان أبدا عائقا ، ومحبة الجميع له جعلت كل طلباته مجابة ، لكن حبه للمغامرة يدفعه دائما لنيل مايريد خلسة ونهبا ، فكان كثيرا ما يتسور المنازل لنيل

بيضة أو بيضتين بالرغم من أنه لو طلب ذلك من صاحب الدار لأعطاه ما يريد عن طيب خاطر ، لكنه كان كما يزعم " الحرام طعمه ألذ " قس على ذلك كل مواسم الزراعات فى الريف فتارة حقول الذرة وأخرى نجده يتسلق النخيل كى يأكل التمر ، وتارة أخرى فى أشجار العنب ، وحقول القصب إلى آخره مما تنبت الأرض بقلا وقثاءا ، يضاف إلى ذلك عملا منبوذا لدى الناس ألا وهو المناداة فى الشوارع على كل فضيحة ، فقد كان يمسك فى يده اليسرى كوبا نحاسيا قديما قد عفّه أصحابه فألقوه فى القمامة وباليد الأخرى قطعة من غصن توت ، ويضرب بالعصا على الكوب ليصدر صوتا من خمس نقرات كى يسمعه الناس ، أذكر فيما مضى أن هناك فى مجتمعنا الصغير حيث القيم والمبادئ المثلى التى لا يستطيع المرء منها فكاكا كان الحب والغرام شذوذا عن قواعدنا والممنوع دائما تقتلنا إليه الرغبة ، علم صديقنا بقصة احدهم معها فذهب إليها فى نوع من التهديد انها إن لم تهبه مالا سوف يجعل سيرتها على ألسنة البلد ، فامتنعت عن إعطائه أى شيء ، ومضى إلى الضلع الآخر من الزاويه فى محاولة لابتزازه ولكنه لم يخضع لشعوره بضآلة صاحبى ، فما كان منه إلا أن جاب شوارع القرية مناديا أن فلانا يعشق فلانة وأنهما تقابلا ليلا عند القنطرة البحرية ، فعلم الناس حجم ذلك الصغير وتجنبوه لبغض لسانه ، تعبت أمه كثيرا فى محاولة تقويمه لا سيما وأن أباه قد غادر إلى دار الحق وهو مازال غضا ، تجرى المسكينة ليلا ونهارا خلفه فى الشوارع والازقة علها تمسك بذمامه وتسجنه فى البيت ولكن هيهات لذلك الأفاق أن يُسجن فى بيت ، أو أن تكبله أصفاد وأغلال ، تترد الناس على بيتها كل دقيقة للشكوى من ذاك الصغير ، الذى إن أردنا أن نوفيه حقه لا شك نمنحه لقب " مشكال " فهو كثير المشاكل منشئ لها فى أعتى صورها ، فذاك يشكو من ضربه لأحد أبنائه والآخر يشكو من سطوه علي حقله والآخر من دقه الباب وجريه قبل أن يراه أحد.

لم يتوقف عطاء صاحبنا على نفسه فقط بل تعدى تلك المرحلة ليجلب المشكلات إلى غيره ومنهم عويس ذاك الطفل النحيل قليل اللحم على عظامه لعلة فى قلبه خلق بها ، يعيش فى بيت هو أشبه بالكوخ ، لا يملك من الأرض سوى تلك العنزة الصغيرة التى يحار فى إطعامها فلا أرض لديه ولا مال ، يعيش على الفتات الذى يمنحه له الجيران ، يتسول الطعام لها ولا يملك إلا أما عاجزة وأخت أصغر منه بسنوات قليلة اصطفاه مشكال ليكون صديقه الوفى وحقا كان وفيا فقد حمل عن صاحبه الكثير من المشكلات ، فتارة يذهب للحقول كى يسرق البرسيم فى حين أن عويس يجلس خارج الحقل منتظرا طعام عنزته الجائعة بعدما وعده صاحبنا بأن يتكفل بطعامها ، ينزل إلى الحقل ويقص حِملا من البرسيم فيراه صاحب الحقل من بعيد وينادى :

- انت ياللى هناك ..

فيجرى صاحبنا هاربا ويترك الحمل لعويس و صاحب الحقل يجرى ليمسك به ولا يجد سوى عويس يلملم ما تناثر من طعام جائعته فيوجعه صاحب الحقل ضربا ويعود إلى القرية ما استفاد سوى احمرار وجهه وأوجاع بجسده .

لم تتوقف مغامراتهم المشتركة عند هذا الحد بل إنهما فى ذات مرة مضيا فى الشوارع الملتهبة فى حرّ الصيف ولا أحد بالشارع سواهما واقترح مشكالنا أن يتبادل هو وعويس اللكمات والضرب تحت مسمى اللعب حيث كانا يشاهدان معا بعض الافلام المفعمة بالعنف فى التلفاز القديم لدى الحاج جابر صاحب أول تليفزيون فى القرية ، والذى يجتمع فى بيته مالا يقل عن مائة جسد ما بين نساء ورجال واطفال لمشاهدة مسلسل الثامنة مساءا منهم من يجلس فى المقدمة ومنهم من يقف بالباب عند إمتلاء الغرفة ومنهم من يتعلق على النافذة ، وليس ذلك بآخر المطاف بل فى

أيام الأعياد يحتشد الجمع لمشاهدة الأفلام الهندية التى تعتبر لهم السلوى من العام للعام .

أقول أنهما مضيا فى الشوارع الخالية تماما من الناس يسترجعون ما تبقى فى ذاكرتهم من مشاهد بالفيلم الهندى وطبعًا خلع مشكال على نفسه لقب بطل الفيلم ومنح عويس اسم العدو ، وبدأ القتال بالطوب تارة وبالعصى تارة أخرى حتى لمعت فى رأس صاحبنا فكرة كان قد رأى البطل يفعلها ألا وهى دفع العربة إلى العدو فتطرحه أرضا ، ووجد صاحبنا ضالته فى عربة الجاز المملوكة لعمى " نصر " عبارة عن برميل كبير يتوسطه عجلتين ، وفى الخلف صنبور للتفريغ ، ومن الأمام قائمين كى يتوسطهما الحمار الذى يجر العربة ، أمسك العربة من القائمين وعويس يقف متواريا خلف العربة ورفع صاحبنا القائمين ودفع العربة ناحية عويس كى يطرحه أرضا ولكن العربة أخطأت الهدف وارتطمت بالأرض من ناحية الصنبور لينكسر ويسيل الجاز يروى ظمأ الهاجرة فى حين يفتح الباب وخرج عمى " نصر " ويمسك بتلابيب عويس ويصرخ فيه بينما يشير عويس إلى مشكال ولكن أين هو ؟ لقد شُقت الارض وابتلعته ولم يجد " نصر" سوى عويس !، أذكر حينها أنه باع عزيزته من أجل أن يسدد لصاحب الجاز ثمن جازه .

والكثير الكثير من المواقف التى تعجز السطور عن سردها ، فى المجمل كان صاحبنا ملء السمع والبصر ، فى كل موقف تراه وفى أى تجمع لن يكون غائبا ، ففى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف يحمل السيف الخشبى وتراه فى اول الصفوف فى موكب الاحتفال ، وحين ترى مجنون القرية "عِبس " بكسر العين حيث كان يشتاط غضبا من ذاك الإسم لم يتركه مشكال يوما فى حاله بل كان من أول المستفزين له حيث يقوم بتدشين حملة للنيل من عبس يقذفه بالطوب تارة

وبالماء تارة أخرى ويجرى خلفه ويقفز فى الهواء لينال من غطاء رأسه ، أراح الله عبس من مشكال حيث وجدوه جثة متعفنة فى أحد الحقول .

كل تلك الذكريات وأكثر دارت فى خلدى وأنا ذاهب للقاءه بعد عودته ولرحيله عن البلدة قصة أخرى ، حيث أن صاحبنا وبعد طول عمر وهو على نفس الشاكلة ، شعر أن هناك من يهتم به ، فتاة أحبته ، كيف ذلك لست أدرى ولكن بالرغم من ان سماته شيطانية إلا انه لا شك آدمى وله قلب يشعر ولسان عذب الكلمات ، تحملت اللوم من العديد من رفقائها على عشق ذاك المتشرد لكنها عاندت وهو ايضا تملك الحب من قلبه فصار يضع الخطط الجهنمية للقاء حبيبته ، يلتقيان خلسة عند طرف القرية وتحت أشجار الكافور له صفير مميز ما ان تسمعه محبوبته إلا وتنتفض واقفة وتمشي كمن تم تنويمه مغناطيسيا لتتعلل بإلقاء الماء المتسخ علي الجسر القابع هناك عند حافة القرية لتلتقيه انتشرت قصتهم بلا دق علي الطبول ولا أحد يفتضح سره فقد قضحته اللقاءات الغزيرة والنظرات الثاقبة ، وعلم والدها بالقصة فحبسها فى الدار ومنعها من الخروج حتى لا تلتقى ذاك الشقى ، مخر عباب فكره كى يصل إليها فليس الحنين وحده ما يدفعه إليها بل إحساسه بقلة الحيلة تجاه لقاءها وكيف له وهو المغوار المقدام الشجاع أن تكسر همته مثل تلك الحواجز، وفجأة تحرك داخله الشيطان فذهب إلى بيت أحد العاملين بالكهرباء ليسرق السلم المعدنى الطويل الذى يتسلقه لتصليح ما يحدث من أعطال فى أعمدة الإنارة العالية ، سرق السلم فى ليلة ظلماء وذهب إلى بيت معشوقته ووضع السلم على الحائط وقفز إلى داخل الغرفة التى ظن أن حبيبته تقطنها ، وتعالت الأصوات والصراخ ليجتمع أهل القرية ، وإذ بالباب يفتح ويخرج صاحب الدار ممسكا بصاحبنا ، فقد ساقه سوء حظه إلى حجرة أبيها حيث كانت أمها تنام علي السرير الذي سقط عليه

بعد قفزته ، وفى النهار كان صاحبنا مدانا أمام مجلس عرفى بأن يدفع لصاحب الدار عشرة آلاف جنيه تعويضا له على انتهاك حرمة بيته ، وكان من ضمن الشروط أن يغادر القرية إلى غير رجعة فقد شكا أهل القرية جميعا مما أصابهم من مشكال ، ولكن كيف له أن يسدد ذلك المبلغ الكبير باعت الأم الدار وما ورثته عن أبيه قيراطين من الأرض الزراعية لتدفهم ثمنا لغرامه المجنون ، وغادر هو البلاد تاركا أمه تعيش فى دار أبيها ، وإنقطعت أخباره كثيرا فتارة يقول أحدهم قد رآه فى مصر وآخر فى الأسكندرية إلى أن ظهر وبعد عشرين عاما .

طرقت الباب ففتحت لى أمه وكأنها هى الأخرى غابت عن ناظرى لعشرين عاما ،تهللت أساريرها وكادت تطير من الفرحة ، سألتها عنه ففرحت لاهتمامي وسؤالي عنه ، وأشارت إلى الغرفة الموصدة بآخر البهو كان الرجاء منها أن أحاول إخراجه من صمته فقد عرفت منها أنه منذ عودته غريب الأطوار يلوذ بالصمت الرهيب ويتهيب من ملاقاة الناس ، دخلت إليه ضممته إلى حضنى لم يتغير وجهه كثيرا غير بعض الشعيرات البيضاء التى تخط لحيته وأخرى تتناثر فى رأسه ، الدقيق كأنفه وعينيه

- كيف حالك يا صديقى ..؟

- الحمد لله أفضل .

- ماذا دهاك وما تلك الغيبة التى طالت كثيرا ؟

أخذتنى الدنيا فى معتركاتها والآن .. عدت

- احك لى عما لاقيت ياصديق الطفولة .

غربت عيناه عنى للحظات ، ثم ملأ صدره بالهواء واسترده فى زفير كاد أن يحرقنى من حرارته ، يبدو أنه متردد فى أن يصفح عما حدث ثم استطرد :

منذ أن غادرت البلدة فى فضيحتى المشهورة ذهبت للعمل بالقاهرة وضاقت بى الدنيا فتركت القاهرة إلى الأسكندرية ومنها إلى مرسى مطروح ثم للسلوم وتعديت الحدود إلى ليبيا ومنها بحرا إلى قبرص ثم انتهى بى المطاف فى إيطاليا ، عشت هناك أياما وسنينا لا تنسى ، كنت كما عهدتنى هنا لا شيء يقف أمامى عرفت كل الناس وأصبحت شخصا معروفا لدى الجميع ولكن المعرفة هناك تؤذى أكثر مما تفيد ففى إحدى جولاتى بالشارع بعد أن إنتهيت من عملى رأيت إحداهن تستنجد بى من شباب متسكعون حاولوا سرقتها فتحرك لدى دم النخوة والمرؤة فدافعت عنها لكنهم كانوا كثيرون فأوجعونى ضربا ، أحدهم فقط هو من استفزنى فترصدت له بعد انتهاء المعركة وتشاجرنا وتذكرت وهو بيدى كل من أغضبنى فى حياتى العم نصر وعبس وحتى أبو فتاتى التى تركت البلاد من أجلها وفجأة خر الرجل صريعا وأحترت إلى أين أمضى ، وفى حيرتى تلك وجدت نفسى فى عربة الشرطة ثم فى المحكمة ثم إلى السجن ،عشت أيام نحسات فى سجون إيطاليا ، خاصة أنك تعرف أخاك كثير الشغب ، وذات مرة ونحن بالكشف الطبى الدورى الذى يوقع علينا رأيت الطبيب يعض على شفتيه ، وما فهمت منه شيئا ، لكنى بعد أيام قلائل علمت حينما أخبرونى أنهم قد أفرجوا عنى أفراجا صحيا ، ففى جسدى يقبع سرطان ماكر ، ليس له علاج استطاع وحده أن يهزمني ، وبعد خروجى سلمت نفسي للسفارة كى أعود إلى هنا طامعا في أن أدفن فى بلدى .

وقعت الكلمات على صدرى كجلاميد صخر ، أهذا ما يحزن صاحبنا ،استاذنته بالذهاب ، ولم تفارق صورته خيالى طيلة الليل ، شقاوته وشقاؤه ، مغامراته التى

لا تنسى ، ذكريات لا تنتهى ، غلبنى النوم وصحوت على صوت نقرات خمس وصوت طفل ، ينادى أهل القرية فتخيلت أننى أحلم ، أو أن معجزة قد حدثت وعاد صاحبنا لطفولته مرة أخرى ،وأنصّتُ للصوت فإذا به يعلن موت مشكال ، الآن سكن البدن الذى ملأ الشوارع ضجيجا ، وسكت الصوت الذى طالما أضحكنا ،عاش شقيا ومات صامتا.

زمن الحمير

الفجر يبزغ من خلف الضباب ، كعادته كل يوم ، ليبدأ يوم جديد تحمل ساعاته العديد من الأحداث ، منها ما يمر مرور الكرام ومنها ما تبقى آثاره ليوم قادم أو يومين أو حتى سنوات أخرى قادمة ،لا يزيد اليوم عن أربعة وعشرون ساعة لكن مع الفرح قد تمضى فى لحظات ، ومع الحزن والهم والشقاء قد يتضاعف الشعور بثوانيها ولحظاتها حتى نشعر كأنها الجبل الرابض فوق أكتافنا ولا نستطيع منه فكاكا ،الديكة تؤذن للفجر الجديد وهو جاثٍ على أقدامه ، فى إنتظار يوم طويل ، يعانى فيه من حمل أثقال أولئك البشر يحملها من مكان إلى آخر ،هناك فروق بينه وبين من يملكونه من البشر أولها أنه يمضى فى الطرقات على أقدام أربعة لذا فرأسه دائما إلى الأرض تميل ، وعيناه عاى جانبى وجهه مما يفرض عليه نوع من الرؤيا الغير كاملة ، ولسانه لا ينطق إلا بنهيق تشمئز منه النفوس ، وهناك أيضا ما يميزه عنهم ، فهو دائما يحمل أمتعتهم وأحمالهم الثقيلة التى تكل أقدامهم وأذرعهم عن حملها ،وأثقالهم إلى بلاد ما كانوا بالغيها إلا بشق الأنفس ، ولكن حمارنا هذا يكره الآدميين لأنهم

ناكرى الجميل ، فكم من مرة وهو يعانى الألم والنصب تسقط فوق جسده المنهك سياط العذاب ، أهذا هو الجزاء أيها البشر ؟

يذكر حينما ولد " جحشا " صغيرا مقبل على الحياة ، يرسم الآمال والأحلام لنفسه تواقا للنيل بما أراد ، كم حلم أن يكون كبيرا فيحمل الهم عن أبيه وأمه اللذين أهلكهما العمل لدى ذاك الرجل الشرير الذى يقطنون " زريبته " أى حكمة تلك التى تجعل منهم عبيدا للبشر مقابل لقيمات تافهة من أعواد البرسيم ، أو بعض من " التبن " الذى هو خلاصة أعواد القمح أو الفول الصويا والتى تقطع الأمعاء ولا تسد الجوع ، غيرهم من الأنعام مرفه الحال يأكل ما لذ وطاب ويحظى برعاية من نوع خاص ، حينما كان صغيرا تولته يد الحنان والهدهدة ، وبعدما مرت الأيام أصبح فى كد من العيش وتزركش جلده السميك بالأدواء جراء عمله الشاق طيلة اليوم ، ينتظر لحظة حنو من البشر الأشقياء ولكن بلا فائدة فهم أبعد القلوب عن الشعور به وذويه ، كم أنت تعيس أيها الإنسان لا تعلم أن ما بين يديك لن يدوم لك ، وسوف تتركه لغيرك من أبناء وأحفاد ، تثقل كاهلك بالأمال والأحلام والطمع فيما بيديه ويدى غيره وفى النهاية لا ينال منها غير حفرة تحوى عظامه الهالكات ، مشفقون عليه من مصائره ولا يشفق عليهم أولئك الحمير فى معاملاته ، تدبر الحمار ما وصل إليه حاله وحال الحمير من عشيرته وأقربائه وقرر الاجتماع بهم للبت فى أمور معيشتهم التى صارت فى تردى واضح ، وكان الاجتماع الاول لرابطة الحمير والذى عرض فيه الجميع مشكلاتهم ، منهم من أرجع ما هم فيه إلى خلل فى نفس كل منا فلو أصلح كل حمار ما بنفسه لصفيت الحياة ورحل الكدر ، ومنهم من أرجأ ما هم فيه إلى عدم التوحد على ذيل حمار واحد فالفرقة داء عضال يجعل السوس ينخر فى جذوعهم فردا فردا حتى يتساقطون كأوراق الخريف الجافة ، ومنهم من رأى أن

المعاملة لابد وأن تكون بالمثل فلا خير فينا ما دمنا ضعافا فالحمار القوى لا شك يهابه الجميع ولماذا لا نرد على تعذيبهم بعضة تودى بحياتهم ، وكان التعقيب منهم بالنهيق المفعم بالرفس والقهقهة ، شعر حمارنا بأن الاجتماع غير موفق لا سيما وأن بعض الحاضرون خلدوا للنوم ، وبعضهم من الذكور أخذ فى مغازلة إناثهم ، وكأن القضية لا تعنيهم هم بأن تُرفع الجلسة ولكن هناك حمار فى طرف الزريبة نوه إلى شيئ خطير ، أن البشر قد تفاقم لديهم الانتقام منا والنيل من أجسادنا حتى أنهم صاروا يذبحوننا ليأكلوا لحومنا أتلك هى نهاية المطاف ؟

نظر كل حمار إلى أخيه والخوف يعربد فى جنباتهم وترتعد الفرائص من هول ما سمعوا ، فأشارت أتان عجوز إلى ضرورة وضع توصيات شديدة اللهجة تحافظ على حقوقنا نحن الحمير وإلزام البشر بتنفيذها .

ولاقت الفكرة قبولا لدى الجميع إذ أنه لابد لكل اجتماع من توصيات ، واجتمعت لجنة لصياغة التوصيات وجاءت بكل عبارات الشجب والاستنكار والحث من البشر والطلب إلى البشر ضرورة العناية بالحمير ثم تم طباعة التوصيات وتوزيعها على المجتمعين ولكن إلى أين ولمن ترفع ؟ لم يجدوا إجابة لذلك.. وبينما هم كذلك إذ افتقد الفلاحين وأصحاب الدور فى القرية حميرهم والتمسوها ها هنا وها هناك وأخيرا وجدوهم فى اجتماعهم، فأشهروا العصى فى وجوههم فولى كل حمار تجاه داره أو حقله وتطايرت الأوراق التى حملت كثيرا من حقوق الحمير الضائعة لدى البشر وعاد كلٌ لعمله بلا حراك ولا تمرد فقد علموا أنهم مهما تشدقوا بالكلمات المحفزة لا يزيدون عن كونهم حمير .

هـــــــذا أبـــــــــــى

حزم الرجل أمتعته ناويا الرحيل عن أرض انتهرته ، وضاقت بها السبل نحو لقمة العيش لأطفاله وزوجته ، يحمل فوق عاتقه هم ولدين وبنت وزوجة ، قد عانى الأمرين فى محاولة الوصول إلى حد الكفاف ، فى كل يوم وقبل بزوغ الشمس يمضى نحو البحر حاملا شباكه وشصوصه يلقى بالشباك وينثر الشصوص وينتظر الرزق ، فتارة يأتى وتارات يتأخر الرزق ، وما دام الموج عاليا وسكون البحر صار مستحيلا فلا حيلة له فى الرزق خاصة وأن الأسماك ما بينها وبين البر ثأر ، فهربت إلى الأعماق ولا يملك صاحبنا للأعماق سبيلا ، اللهم إلا أن يعمل أجيرا على أحد مراكب من يملكون المال والخشب ، وفى تلك مذلة وضيق حال ، فعقد نيته على السفر إلى البلاد البعيدة علّه يجد الرزق هناك ، فبعيد مرتجى خير من قريب قد عُلم ما فيه .

قبّل أبنائه وبنته وزوجته وبداخله شعور ألا تتقابل الوجوه مرة أخرى ، فقلبه يعتصر ألما من هول ما قد يلاقى ، تتصارع فى عقله الأفكار ولا مناص من الرحيل الذى قد يردى حياته ، أو قد تمر الأيام خفافا ويفوز بكل ما فى السفر من فوائد .

فارق البلاد وقلبه معلق بمن فيها فهناك ترك زوجة احتوته بكل معانى الكلمة ، فقد صبرت معه على كل ما لاقى من صعوبات الحياة تجوع يوما وتشبع يوما تزيح ثقل الحاجة بشيء من الود والألفة ، طفلته الصغيرة التى طالما داعبت وجهه بأناملها الدقيقة وكم احتضنته بكفيها الصغيرتين ، وطفليه اللذان رأى فيهما ما زرع فيهما من الرجولة وحب الحياة ، غُصة فى حلقه وسكاكين تقطع فى جوانحه ، ليته يعود ولا يستمر فى طريقه ، نازع شيطان العودة ومضى نحو ملائكة المُضى قُدما ، وقد نرى نحن الصورة فى وجهها الخاطئ وما نراه ملاكا ما كان غير شيطان رجيم ، وما كان إبليسا ما هو إلا ملاك رحيم ، وصل القطار محطته المنشودة ونزل صاحبنا إلى أرض الوحشة والغربة وما زال قلبه مفارقا لأضلاعه ، مضى ليستقل سيارة ستنقله إلى وجهته المقصودة والتى عنى أصحابها بالصيد وبعدما مضت السيارة فى طريقها وقطعت شوطا من الأميال ، توقفت فجأة ليظهر بعض مكمى الأفواه والأنوف وغاب صاحبنا عن الوعى ليستفيق بين أربعة جدران وسرير أبيض اللون يقف عند طرفه أحد رجالات الشرطة غابت تلك الفترة التى مرت عن ذهنه لم يدر ما حدث بها طالت أو قصرت ، سأل الشرطى عن سبب تواجده هنا فى السرير وعن مرافقته له فى المشفى فما رد عليه بغير العبوس .

حار عقله كثيرا ولكن سرعان ما علم أنه متهم بقضية قتل فقد وجدت بصماته على احد الأسلحة التى خرج منها طلقة استقرت فى رأس أحدهم الذى حتى ما علم اسمه حتى تلك اللحظة حاول جاهدا الدفاع عن نفسه ولكن لا مجيب ولا مستمع ، وكان يوم العدالة وحكمت المحكمة عليه بالسجن لخمسة وعشرين عاما ، شعر بالغصة تزداد فى حلقه ، مهما علا صوته لا آذان تسمع ولا قلوب تمضى به الأيام رتيبة ومملة ، لا جديد لديه أربعة جدران تحتويه هو ومن حوله من الأشقياء ، أربعة حوائط

تضم الظلم والظلام والمهانة والصمت ، لاذ صاحبنا بالصمت فرب صمت أبلغ من كلام جعل من أذنيه وعاءا يضع فيه كل من حوله همومهم ذاق لذة السماع ، وظل سره رابضا على أضلاعه .. وحده من يشعر بالعزلة بالرغم من الجموع الغفيرة التى تتردد على عينيه فى كل صباح .. شارك الجميع أفراحهم حينما تأتى البشرى لهم بالخروج ، ووضع نفسه فى مكانهم حين يُبشر بالخروج ماذا عساه أن يفعل ؟ ترى سيكون ذاك حدثا جللا فى حياة أسرته أم أنه سيكون منغصا لحال أولاده وزوجته فقد مر الآن من عمره أعوام عشرة ، لم يزده السجن فيها غير نحول فى جسده وصمتا فى فمه ، وحكمة بالغة يهدى ثمارها لكل من حوله ، لقد صنع لنفسه مكانا فى قلب كل من بجواره ، لكنه إن خرج فقد تكون زوجته تزوجت من غيره لطول غيابه ، وقد تكون أخبرت أبنائه بوفاته من يدرى ؟

المهم أنه قد بصُر بضرورة مكثه ها هنا ، فخروجه قد يعنى الضرر لأسرته التى باتت تدير أمورها بدونه ، فى كل يوم يزداد مَن حوله حبا فيه وهو يحمل كل يوم هماً جديداً يعيش مع جيرانه مشكلاتهم ويذلل لهم العقبات ، يتوافد عليه فى كل يوم جديد ، ويخرج للنور فى كل يوم رفيق ، لا يكترث بمن أتى ويحزن على من تركه ، إلا ذاك الشاب ذو الوجه الملئ بالندوب ، والذى أتى منذ أيام ، يرمق صاحبنا بنظرات ملؤها الغموض ولكن صاحبنا لا يكترث بما يرى من نظرات الوافد الجديد ، أما ذاك الوافد فقد سأل مرارا عن ذلك الذى يلتف حوله السجناء لكن أحدا لم يخبره بشيء سوى أنه الطيب الحكيم ، ذات يوم وبعد أن ختعت عيون السجناء من هول ما يلاقون فى نهارهم للنوم ، الكل نائم عدا ذاك الزائر الجديد ذو النتوءات والأخاديد التى تكسو وجهه المجرم ، سمع صاحبنا صوت غريب أشبه بالحفر والدق الذى يسمعه طيلة النهار فى الجبال الحارقة ، ظن أنه رجع الجلبة ،

لكن الصوت استمر فتعقب الرجل الصوت حتى وجد المجرم يحفر فى الارض ، فتسمر الرجل حينما شعر بصاحبنا منتصب عند أطراف أقدامه ، إرتبك من المفاجأة حينما بادره صاجبنا بالسؤال عما يفعل ، فأجاب بانها محاولة للهروب وسيكون هو الرفيق فى الهرب ، حاول صاحبنا جاهدا أن يوضح علته فى عدم الهرب فهو قد تأقلم مع السجن حتى أنه لا يدرى ما يحدث إذا ما أفرج عنه ، لكن المجرم أصر على الرفقة حتى يضمن ألا يشي به لإدراة السجن وكان أن وافقه على هواه حتى ينتهى اليوم ، وجلس إلى نفسه كثيرا يحدثها :

ماذا لو خرجت إلى الدنيا ؟أيكون ذاك فى مصلحة أبنائى ؟ خمسة عشر عاما مرت ولا ادرى عن أينائى شيئا ، لعلهم قد نسوا أن لهم أبا .

نترك صاحبنا فى خيالاته وصراعه ما بين البقاء والهرب ونحلق بعيدا إلى زوجته وبيته ، فهاهى الزوجة تنتظر عودة زوجها التى طالت عامان مرا وما هناك جديد يذكر سوى لوعتها وشوقها إليه وسؤال ابنها وصغيرتها على أبيهم ، وما كان منها سوى .. سيعود .

سألت الرائح والغاد لعل أحدهم قد رآه كلت قدماها من البحث ، ولسانها من السؤال ، وعيناها من التطلع إلى الطريق المواجه لبيتها ، تولى كل الجيران البحث ولكن هيهات ان يجتمعان ، الكل يفقد الأمل وهى وحدها من يغرقه شعور عودته ، فلسوف يعود حاملا معه ابتسامة غابت عن الدار وأهله ، شنيع هو الألم تجاه المفقود ، فمن واراه التراب قد عُلِم مسكنه ومن تولاه المرض قد عرف دأءه ولكن المفقود تُقطع الذكرى نياط قلوب تنتظره ، مرت السنوات تلو الاخرى وهى على أمل حتى دق الباب رجل ، طالبا يدها للزواج مؤكدا على ان أبنائها فى معيته ولن

يقصر فى تربيتهم والإنفاق عليهم ، ترددت كثيرا ولكن عبء الأولاد أثقل كاهلها فوافقت خاصة وأن القانون يسمح لها فقد فُقد الأمل فى عودته .

تمر السنون فى يسر ومودة نبتت فى قلبها تجاه رجل حافظ عليها وعلى أبنائها وكبر الولد الذى صار الآن ضابطا فى قوات الشرطة فرحت به كثيرا وكأنما نكأ الولد جرحا ظنت أنه انتهى تذكرت والده ماذا لو عاد ورأى ابنه على تلك الحالة ماذا سيشعر وقطع عليها أفكارها زوجها الذى أخبرها بأن ابنها قد تم انتدابه للخدمة فى أحد السجون البعيدة ، تفطر قلبها فتلك هى المرة الأولى التى سيترك ابنها احضانها لبلد بعيد ،ولكن ما الحيلة ودعته بحرارة وقلبها وجل عليه فقد أخذ السفر من قبل قرة نفسها ملعون هو السفر يقتطع من أجسادنا أجمل ما فيها ليتركنا على لهف لاسترداده .

يذهب الشاب إلى السجن فى رحلته الاولى للعمل يتسلم العمل فى تحذير من القادة القدامى فى السجن أنه سيتعامل مع كل من خرج عن القانون فلابد له من الحذر ولكن الشاب لا يهاب المكان فهناك أو هنا قد جاء ليمارس عمله ولا ضير من التعامل حتى مع الأبالسة فما بيننا وبين من حولنا سوى الواجب والقانون .

يمر فى جولته الاولى بين السجون ليتفقد أحوال العنابر والزنازين فإذ به يرى ترابا غريبا على أرض احدى الزنازين ، ويتعقب خط التراب فيجده متجها إلى الخارج ثم يعود على نفس الخط إلى المصدر فيجد هنالك تحت أحد الاسرة حفرة كبيرة يبدو أن احدا يحاول الهرب ، يدق صوت البوق ليجتمع المسجونين بعد أن ابلغ الشاب عن اكتشافه المذهل فى اولى ساعات عمله ، يجتمع الجمع ويدور الشاب فيما بينهم وينادى فيهم :

ساكنى زنزانة 52 سيجتمعون هنا .

فيخرج من كل حدب فردا ليجتمعوا امامه يخبرهم بما راى محذرا إياهم من محاولة الكذب فالآن سيعرف وليس غير الآن ، وجه التهمة لهم جميعا حتى جاء إلى صاجبنا الحكيم ، فنهره قائلا : أنت من يحفر فى الأرض للهرب .

ولا حظ الشاب نظرات النفى فى عيون كل من حوله ، وما زاد الرجل عن قوله ليس لى رغبة فى الهرب أو الخروج من هنا حتى أحاول .

وقال المسجونين جميعهم أنه لا يفعلها فهو الأب الكبير لنا والرجل الحكيم الذى نستشيره فى امورنا ولو كان يريد الخروج لخرج حينما مرض وعُرض عليه العفو الصحى لكنه رفض ..

تعجب الضابط مما سمع وقال :

ما دمت الصادق ها هنا فقل لى بالله عليك من ذاك الذى حاول الخروج ؟

فرد :

لم أرى أحدا ، وإن رأيت لن أشى به ، فالفتنة أشد من القتل ..

عقد المجرم حاجبيه وهو يسمع ما يقال وتذكر سنوات مضت ، وكيف كان سببا فى وضع ذاك الذى يوارى سوءته فى موضع الجانى ، فقد كان من قاطعى الطرق وكم غار على تجار وسائقين فسلبهم أموالهم .. وحياتهم إن لزم الأمر ، وفى إحدى المرات غار على أحدهم ممن يحملون المال الوفير بعد أن ترصد له وقاومه الرجل فانهال عليه ضربا وطعنا حتى ارداه صريعا ولصقت التهمة بصاحبنا ، كل هذا وهو يتابع عن بُعد ما حدث ، ولم يدرى ما جرى بعد أن لُفقت القضية للجانى البرئ ، ومن منا

إذا ما فكر فى اصطياد عصفور أن يفكر فى مصير ما اصطاد ، وشاء الله أن يلتقيا ها هنا فى السجن ، ولعل ما جعله يفكر فى الهرب هو ذاك الشعور برغبة المجنى عليه بالانتقام ، على الرغم من أن صاحبنا لا يدرى من الذى أوقع به فى ردهات تلك الجريمة لكنه يخشاه جدا ، فإن الظالم دائما يخاف ممن وقع عليه الظلم حتى لو كان المظلوم لا يعلم ظالمه تلك حكمة وضعها الله خوفا فى قلب الظالم ، وها هو الآن المظلوم يخفى سر الظالم ولا يريد الوشاية به ، أى أخلاق تلك ؟

انصرف الضابط الصغير بعدما كلّ لسانه من الوعيد فلن يستجيب أحد لدعواه ، وما كان من المجرم إلا أن خر راكعا تحت قدمى صاحبنا ملتمسا السماح منه ، وقص عليه ما حدث فى العصر البائد ، وكيف كان السبب فى رضوخه تحت الأصفاد زمنا طويلا ، وما تحرك لصاحبنا ساكن سوى التمتمة ببعض الكلمات قائلا : لا تشعر بالذنب صديقى فما قد كُتب لنا لا محالة ماض كالسيف على رقابنا ، وما كنت غير قلم سُطرت به صفحات فى حياتى ، فقد كتب الله السجن علىّ وإن لم تكن أنت السبب لكان غيرك فما بالنا نترك الحدث ونبحث عن فاعله إنما هى أقدارنا التى تسوقنا لما نحن فيه فهون عليك يا صديق .

سقطت الكلمات كجلاميد من صخر على رأس المُقر بذنبه وإنهال على الرجل تقبيلا ليديه وقدميه ، وعاش ليلة ما عاشها من قبل ، تأنيب للضمير وحديث مع النفس وفى النهاية قرر أن يفك أسر من ستر وسامح ، قرر أن يعترف بجريمته ليحرر يدى صاحبنا ، فقد آن الأوان أن يُحاسب عما اقترفت يداه ، ولأول مرة يجد لذة فى لقاء الجزاء عما فعله فى غيره ، ويكفى أن الرجل قد حمل عنه خمسة عشر عاما ما زادت المجرم سوى إجراما وأضفت على المظلوم حلما وحكمة .

وجاء الصباح الذى انتظره المجرم طويلا وكانت أولى خطواته للضابط الشاب ليعترف وحكى للضابط ما كان منذ أعوام مضت ، وكان التعجب هو العاقد لحاجبى الضابط الذى أكد على إتخاذ اللازم فور عودته من إجازته التى استأذن بها القائد لإتمام زفاف أخته ، وذهب الشاب لبيته وفى لهفة سألته أمه عما مر عليه من أيام فى عمله الجديد فقص عليها قصة الهرب وأيضا ما ألقاه المجرم على مسامعه من قصة رجل كان مسافرا وأُتهِم زورا فى قضية قتل ، وهنا تحرك شيء ما بين أضلاع أمه التى أخذت فى تحرى الموضوع آملة أن يكون المقصود هو المفقود ، سألت عن هيئته ووصفه وطوله واسمه وأخبرها الولد بكل ما علم ، وهنا كانت المفاجأة أن أخبرته أمه بقصة والده الذى علم من قبل أنه مات ، وأجمع الجميع أمرهم على أن يعدوا العدة لزيارة السجين وباتوا ليلتهم يقظين ، يتملكهم شعور غريب بأن السجين أباهم وزوجها الذى تفطر قلبها حزنا لغيابه وجاء الصباح ، ولأول مرة ينادى على صاحبنا بأن له زيارة ، ولكن لا حياة لمن تنادى لقى حتفه فى يوم اللقاء حتى لحظات السعادة لم تكن من نصيبه ، حالة من الكآبة والحزن والصراخ غمرت الجميع حينما علموا بالخبر ، وبكى الضابط كثيرا وسأله زميله لم البكاء فرد : ما كان الرجل إلا أبى وما علمت به إلا بعد أن راح عنى ....

عشـــــق دفـــــين

فى أيام الصبا نحيا حياة نقية بلا أوجاع ولا هموم ، نرى فى الدنيا كل شيء حسن ، لا أعباء أو أثقال فقط انطلاق ولهو ولعب ، تربطنا بمن حولنا أواصر نقية لا يشوبها المصالح ولا الأطماع ، جرى ولعب بلا إكتراث بما قد يخبئه الزمان لنا .

حظيت بأصدقاء كثر كما تجرى العادة فى قرانا وبلداننا الكل يعرف بعضه وكلنا أصحاب واصدقاء كم كنا نخلو كثيرا للعب وكان جل لعبنا فيما خلقنا منه ، هى فطرة فينا خلقنا من الطين ونأكل كل ما له علاقة به حتى فى لهونا ونحن صغار ما كان لنا سلوى إلا فيه ، نصنع منه كل ما افتقدناه فى حياتنا ، لم يكن الفقر عقبة فى طريقنا فالملابس التى تستر أجسادنا وإن كانت خفيفة إلا إن الله يرزقنا ببرد خفيف كى نشعر بالدفء ، عدل ربانى لا عدل البشر الذى يخضع لأهواء وميول ونقود فى الجيوب والأدراج ، كنا نرسم من الطين ما قد حرمنا منه فذاك تلفاز وتلك سيارة وذاك منزل منمق يحتوى على العديد من الأسرة التى نراها فى دور الاغنياء أما نحن فلا نجد إلا الحصير مهدا ، والبطاطين الخشنة غطاءا .

صاحبته كغيره من أبناء قريتنا شيء ما يجمع كلانا وهو الرغبة فى استغلال كل دقيقة من دقائق طفولتنا ، وكأننا على علم بأن الحياة ستخذلنا مستقبلا ، كنا

نقضى ثلثى اليوم معا ، ولا أخفيكم السر ما كنت أحبه كحبى لغيره من الأصدقاء لصمته الدائم ، وقلة انتاجه من الفكاهة والمرح ، كان يفعل ما نفعل بتقليد لا إبداع فيه ولكنه كان دمث الخلق لا يتحرك فمه فى القلائل من الساعات التى يتكلم فيها إلا بكل جميل ومهذب ، كالبراعم كنا ونمونا مثلها حتى صرنا غصونا فأشجارا ، وهو ما زال فى طبيعته الهادئة وصمته حتى أننا نتشوق لسماع صوته ، فى ريعان شبابنا وقد بدأ كل منا يطرق باب الجنس الآخر ، قلوبنا عشقت وكأنما العشق قد اختار وقتا بعينه كى يدفعنا إلى بابه لنطرقه ، كلنا يعشق إلا هو ما فتئ يعيش فى صمته واستماعه لقصصنا ومغامراتنا وكانه يشاهد مسرحا هزليا فى أحيان وتراجيديا فى آخر .

جلست إليه ذات مرة وسألته عن سبب صمته وابتعاده عنا بالرغم من أنه لا يفارقنا إلا أنه بعيدا بمشاعره وخواطره وكلماته أيضا حتى أن بعض أصدقاءنا تململ من لقاءه وجلوسه إلينا ،فما أجابنى إلا بكل يأس ، حيث أنه يجد نفسه ليس مطمعا لأنثى فلا شيء فيه يغريهن للظفر به ، ودائما ينتهى ذاك الحديث بشرود من لدنه ثم يقطع الجلسة بالمضى إلى داره دون إبداء أسباب ، ولنمضى معه نحو داره فإذا به شخص مختلف يهب السلام والتحية لكل من يرى فى الشارع وكأنما ولى ظهره لنا ليتحول إلى النقيض ، يدلف إلى داره ليستقر حتى إنحناء السماء للأرض ليلف القرية ظلام دامس ما به سوى أضواء شحيحة تخرج من كل بيت وقد استنفذت طاقتها الضوئية لتترك للشارع بعض من خيوط ضوء لا يكاد يرى الناظر فيها شيئا ، وهنا ينشط صاحبنا ليلتقى بها بيضاء جميلة بضة عينان نجلاوان وشعر كالحرير ، بها كل المحاسن إلا أنها متزوجة ، حاك الحب حلته بين القلبين حتى أنهما نسيا ذاك الزوج الراقد فى سريره ظانا أن زوجته تشاركه مخدعه ، لا يعلم أن مشاعرها دفعتها

للنزول من عرش حميميته لتقذف بها فى معتركات البرد والعشق معا ، تداولا الهمس معا خوفا من آذان الرقباء ، تعانقا حتى لا تكاد تفرق بين جسديهما ، ما تلك المشاعر التى جرفت عودهما الرطب لتلاطم أمواج بحر العشق ضاربين بكل القيود والأصول وما تأسس فى عقولهم من أخلاق القرية عرض الحائط ، هم الآن لا يخافون ، على الرغم من أنهم سارقى الفرح والسعادة وما هم به الآن دليل على أنها لم تكن المرة الاولى ، فالسارق لا يشعر بالأمان حين سرقته إلا إذا كان مخضرما ، ولكن ما ذنب المسكين الذى ياوى الآن إلى فراشه منتظرا بزوغ فجر جديد يحمل بين طياته شقاء لذيذ ! فالشقاء من أجل زوجته وابنتيه شقاء لذيذ ، لأنه وبعد يوم ملؤه النصب يعود فيرى زوجته منمقة الحال والعيال ومنفرجة الأسارير بعودته ويتقافز الملائكة الصغار حوله فكأنما ما ذاق ألم قط ، هذا عنه أما عنها فكيف لهذا الجمال ان يبطن فى داخله الخيانة أم أن القلب له أحكام تدور فى فلك الخطأ؟

يستمر هكذا حتى يتشبع الجسدين من العناق ، وتتشيع الشفاه من شهد الرضاب الذى لو كلفت نفسها وأيقظت زوجها لرأت منه أجمل ما ترى من خليلها ، أقول ينتهى لقاءهما ليعود إلينا صامت ساكن كأنه الجبل ، أى شخصية تلك ؟ وهل يعنى الصمت شيئا غير الإنطواء والعزلة ؟ الآن علمت أنه قد يخفى فى جنباته سرا لا يبوح به حتى لأقرب من جلس إليه ، استمر العشق بينهما لأشهر ثم لسنوات ومازال يخفى بين أضلاعه سرا لا يعلمه أحد ، جاءنى ذات يوم وقد ملأ الخوف عينيه وتوترت أفعاله يرتعش من الخوف ولكن مم يخاف ؟ حاولت جاهدا استدراجه للحديث عمل يجول بداخله لكنه أبى إلا أن يتحدث ، ولكنه تمتم ببعض كلمات كأنه يلقى بتهمة مرتكبة فى وجه غيره كان يردد : هو السبب ! هو السبب! لا بل أنتم السبب ! سألته السبب فى ماذا لكنه لم يجب ومضى والرعشة تدب فى

أوصاله ، ذهبت إلى منزله ليلا لأطمئن عليه فأخبرتنى والدته بأنه قد سافر فجرا إلى القاهرة للعمل بها تعجبت من فعلته فهو ما طرق باب العمل قط .

تمضى الأيام وصاحبنا كما هو فى عشقه المحرم المخبأ ونحن فى عشقنا المفضوح فيما بيننا ، حتى جاء يوم انقلبت فيه القرية فقد عثر على جثة الزوج المغبون المأفون بفعل زوجته ملقاة فى إحدى المجارى المائية موارى بالطين وقد نهشت الكلاب جسده ، جديدة تلك على بلاد خانعة هادئة كبلادى ، علمت بعد ذلك ان الامر تطور لدى صاحبى فلم يكتفى بالعناق فى الشوارع خلسة بل تفاقم الأمر إلى المضاجع ، لكن هناك عائقا وهو الزوج لا ضير فقد جعلوا لذلك حلا بأن تضع له المخدر فى طعامه وشرابه لينام فى سكينة وتستبدل أسدا غيره فى عرينها وقد نام أشبالها ، حتى أنه ذات مرة أفاق المسكين فوجد الجسدين مستلقيان عراة يجرعون من كؤوس اللذة والشراهة والخيانة ، فقام عليهما ثأرا لشرفه الذى تناثر فى الرياح لكن صاحبنا قاومه وأجهز عليه فأرداه صريعا ، وحاروا إلى أين يذهبون به فتذكر الطين الذى كنا نلهو به قديما وكيف كنا نرسم به ما لا نستطيع نيله فى حياتنا البائسة ، وجد فيه الخلاص من مشكلاته لكنه ما كان يعلم أن الكلاب ستفتضح أمره الذى أخفاه طويلا .

عيون لا ترى

فى إحدى ساعات الظهيرة حيث الحر الشديد وقد خلت الشوارع من الناس الذين أنهكهم الشقاء الذى بدأ منذ ساعات الليل الأخيرة وساعات النهار الأولى حتى ينتصف النهار فيعود الجسد المنهك لبيته كى يتناول غداؤه وقسطه من الراحة ، لكن أولئك الذين على شاكلتى لا يملكون حقلا ولا عملا يضطرهم للصحو مبكرا لذا فساعات انتصاف النهار هى بالنسبة إلى أولى ساعاته ، مضيت إلى الشوارع ألتمس صديقا أفضى إليه ببعض الحديث لنتسامر حتى انتهاء النهار ، وحين مرورى وجدته يتكئ على عكازه البالى كجسده وحلته ، فقير لا يملك من أنواع الترف شيئا بل لا يملك حتى لقمته ، لقد كان فى زمن الصبا فتيا قويا يعمل النهارات الطوال فى جلد وتحمل لولا أنه أصيب فى آخر شبابه بالعمى الذى جعله حبيس حوائط أربعة يتلمسها بيديه ليرى طريق قدميه استعاض بعينيه كفين يتلمسان كل شيئ ليعلمه كأنه يراه ، إنطفأ نور عينيه ليعيش فى ظلام ما كان يحتمله للحظات حين كان يرى النور ، كفت يداه عن العمل فقد تدله على الطريق ولكنها لا تعمل بلا عينين ، كأنما سنون حياته قد اجتمعت فى عجل ، ضرب الشيب مفرقه وخطت السنوات فى وجهه لحظاتها وساعاتها وتجاربها وآلامها ، خارت قواه من بعد قوة ، صار الناس

يتأففون منه بعدما كان الحديث إليه والجلوس معه بغيتهم ، هم البشر ما دمت تحمل قدك وجسدك يعرفونك ، وما إن ثقل عليه جسده ثقل عليهم هو نفسه بكل ما لديه جسد وروح حتى الكلمات العِذاب تفر منه كما يفرون هم من ملاقاته خشية أن يدلوه على الطريق ، حمقى نحن حين نظن العمى فى عينيه ، إن العمى فى قلوبنا نحن حين لا نعيره مد بصرنا ليهتدى لطريقه .

وجدته يمضى تتعثر قدماه فى لبنات استقرت تحت جدران المنازل ، ذهبت إليه أخذت بيده سألنى عن اسمى فأجبته وسألته عن وجهته فاخبرنى بمكان ما عند بعض علية القوم فى بلدنا ، ذاهب إليه يستجدى بعض لقيمات تقيم جسده ، كان الطريق إليهم طويلا وشاقا لم يكن الشقاء فى بُعد الدار عنا فقريتنا قريبة الدور لكنما الحياء فى نفسي يجعل البيت بعيدا لا سيما وشيخنا الهرم يريدنى أن أرافقه فى طريق العودة مما يستلزم منى الجلوس معه فى دار المحسنين حتى يعود ، تحدث كثيرا لكن أذناي لا تعمل حينما عمل العقل فى رأسي أرسف فى أصفاد خجلى وتأبى الأقدام أن تسير إلى البيت المقصود ، ولكن عزائى بأن يجد ذاك الضرير لقمته ومبلغ من المال يقتل مسغبته وعوزه ، ذاك ما جعلنى أتقدم خاصة وأننى لا أملك أن ادفع عنه تلك المخمصة .

ذهبت إلى حيث ابتغى دققنا الباب .. يبدو أنهم نائمون .. كررنا الطرق على الباب .. وكأنهم قد رأونا من زاوية ما من البيت ولم تكن بهم رغبة فى استضافتنا ، لكن شيخنا مصر على الدخول فربما نداء الحاجة والفاقة هو ما أبقاه على إصراره ، وأبقانى على حالة لم أشعر بمثلها من ذى قبل فالصوت يعلو بين أكوام السكون وأخشى أن تتناثر كرامتى فى الرياح فيشتم خزيي وذلتى كل من يسكنون حول البيت المرتجى فيخرجون ليروا ما حل بنا من صغار ومعرة ، وأخيرا فُتح الباب

وبعدما كنت أخجل من الدخول وجدتنى ألوذ بالفرار لا منه بل إليه هيبة من أعين الشامتين ، قابلتنا سيدة عجوز بترحاب يُظهر المودة ويخفى التململ والتصنع ، أجلستنا على أريكة من الخشب ، لحظات وظهر طفل وسيم قد بدت عليه سيماء الغنى والعز ، شعر منمق ووجه أبيض البشرة جميل القسمات وكأن الجمال أيضا حِكرٌ على الأغنياء من البشر ، وعلى قدر ما أسرفت الطبيعة فى حسن خلقته أسرفت أيضا فى سوء خلقه فقد نظر إلينا نظرة اشمئزاز ونفور وكأنما أمثالنا خلقوا من شيء غير الذى خلق منه أولئك ، أو ربما لم يكن سيء الخلق ونحن من يستحق تلك النظرة فنحن كما يعلم هو رغم صغره ننتظر منحة منه ومن ذويه ، تأخرت السيدة كثيرا ثم أتت بعد لحظات كالجمر مرت على جسدي ، ألقت فى يديه ورقة نقدية ووهبته كيسا من البلاستيك قد يكون حاوية لطعام أو مؤونة ، وما زاد اندهاشى أنها ألقت إلي أيضا بورقة نقدية وكأننى جئت كى أستجديها لحاجتى .

حاولت جاهدا أن أخبرها أننى مجرد دليل فقط ولكنها أبت أن تسمع حتى لكلماتى ، وشعرت حينها أن كل الوجوه التى تعرفنى تراصت فى لوحة واحدة وأخذت تحملق فى عطيتها لى ، دعوت ربى كثيرا أن ينتهى ذاك المشهد الهزلى الذى كان أشبه بجبل من الثلج الذى سقط على جسدى العارى واستجاب الله لى ومرت ساعتين كنهارين ظللت فيهما فى لفح الهاجرة دون ظل أستظل به من الرمضاء ، وخرجنا من المنزل والأسئلة تتدافع فى رأسي .. أليس من حق ذاك الضرير أن يجد من يحنو عليه دون جهد منه ؟ ألم نؤمر بتوصيل مساعدته إليه لحفظ ماء وجهه من السؤال ؟ أليس المال أمانة بين أيدينا لنرفع به الفقر والحاجة عن المساكين وندفع به الظلم عن المظلومين ؟ أم أننا صرنا نستخدمه فى طرق عكس ما خلق من أجله ؟ كم

نحن ظالمون .. مضيت والرجل وتركت التفكير جانبا وعلمت منه أنه فى فتوته وشبابه كان يعمل فى أرض هؤلاء القوم حتى فقد بصره وكانوا يرسلون إليه بعض المال والطعام وفجأة إنقطعت العطايا فلم يجد إلا أن يذهب لاستبقاء بعضها ليقيم جسده المنهك .

تحدثنا طويلا غير أنى وجدت فى كلماته قصص غريب حيث أنبأنى أن هناك جيش عرمرم عتى يجرى خلفه يحملون فى أيديهم سيوفهم ، سود الوجوه كبيرى الأنوف لكل واحد منهم قرنان كبيران يتشاكسون بهما معه ، وكيف أنه يحمل سيفه ليحاربهم ويصرعهم ولكن سرعان ما تتحرك دمائهم فتنبت جنودا أخر ليقاتلونه مرة أخرى ..

عجبت لما قال وسألته عن سبب ذلك قال يريدون حياته لأنه قد قضى على جيوشهم فى حروب مضت ، أحسست أن الرجل قد أصابه مس من جنون وشعرت بالأسي يعتصر قلبى ، فذاك الشقى الضرير يعانى الظلمات ولم يتوقف شقائه عند هذا الحد بل فى الظلمات خيالات تقتله ، وصلت إلى داره وأسكنته بها وعدت أدراجى لمنزلى وبقلبى جراح لا تشفى وأخذت على نفسي عهدا أن اتردد على بيته لاحقا للإطمئنان عليه ، ولكن ما آلمك اليوم يمزق قلبك وغدا تشعر به قليلا وبعد غد تنساه ،وكر الأيام يُنسي الآلام نسيته فى معتركات الحياة وتذكرته يوم سمعت المنادى فى ميكروفون المسجد المجاور ينادى أن فلان الفلانى قد توفى وصلاة الجنازة بعد الظهر ، لومت نفسي على نسيانه ولكن ترى ماذا حدث له ؟ هل أغار عليه الجيش الأسود فلم يستطيع المقاومة فهُزم ليقضى نحبه ؟ أم قد قل لديه الزاد والمطعم فتضور جوعا ومات خاوى المعدة ؟

سواءا كان هذ أو ذاك فلا نلوم سوي أنفسنا ، لدينا رؤوس تحتوى على عينين مبصرتين ولكننا لا نرى سوي ما نريد ، فلو أن لنا فى ذلك الرجل حاجة ما تركناه

هكذا لكنه ضرير لا يستطيع لنفسه خدمة فكيف له أن يخدمنا ، ذهب إلى ظلمة القبر وتركنا فى ظلمة الحياة بعيون متسعة لكنها لاترى .

الظل الفاضح

تركت القرية خلفى تغط فى نوم عميق ، تخلد للسبات القاتل منذ ساعات الليل الاولى وقد أنهك الأجساد طول الشقاء فى ساعات النهار التى تبدأ لديهم فى آواخر الليل وتدوم حتى انتصاف النهار ثم تستكمل دورتها حتى ساعات الليل الأولى ، شوارع هى أشبه بالمقابر الكل نائم كالموت لا حراك ولا صوت سوى صوت الصمت الذى هو أكثر ضوضاء من أقبح الأصوات ، خلت الشوارع من كل حى سوى ثلاثتنا أنا والكلاب واللصوص ، وكلنا متشابهون فى الغاية والهدف ، فالكلاب تبحث فى الليل عن بطولة قد افتقدتها فى نهار طويل ، ظلت فيه تتسكع يمنة ويسرة كى تأكل بعض الفتات من بقايا طعام البشر ، البشر الذين يطاردونها فى الأزقة والدروب حتى الأطفال منهم ما عادوا يخافون أنياب الكلاب ولا شراستها ، ينام فى ظل حائط أو شجرة ليهرب من لفح الهاجرة والرمضاء ، مطبقا فكيه على لسان لا يجرؤ على العواء نهارا حتى لا يثير غضب الآدميين فيدكون جسده من كثرة الندوب والجروح التى يسببونها له ، أما فى الليل فقد خلت الساحات منهم ومن ظلمهم وجورهم على ضعفه المقيت ، يملأ الأرض نباحا وعواءا لا دفاعا عمن ناموا ولكنها البطولة المزعومة التى هربت منه فى يقظتهم ، يطارد أشباحا مريضة وخيالات وأوهام ما رآها إلا هو وخياله الفاشل ، واللص أيضا يبحث فى الليل عما

قد ضاع فى نهاره قد يكون الجوع هو ما أيقظه أو أن هناك رغبة جارفة فى التسلق والقفز والبطولة التى فارقته فى دقائق النهار ،كلٌّ يبحث عن ضالته ، فى غفلة من الجميع يستبيح كل ما أراد خلسة ، وأنا... حتى أنا أبحث فى الليل عما قد ضاع منى فى نهار طويل ، فمصيبتى أنى قد وهبت ما أملك لمن لا يستحقون فلا حبيب وعى ولا صديق وفى ولا أخ أستند إليه ولا رفيق درب أعتمد عليه ، الكل يريد ولا يعطى أسمع للجميع ولا أحد يستمع إلى ، أحمل هم الجميع ولا مجير لى فى همى ، أرى فى أعين الناس الخديعة والمكر والخيانة والضياع الكل يترصد "لقمة فى جوفى خير من أن تكون فى جوفك ، أسعى جاهدا للنيل منها حتى وأن كلفنى ذلك قتلك" ، هذا هو المبدأ الذى يسير عليه أولئك الظالمون .

وليت ظهرى للبلدة التى نامت كأهل الكهف بلا حراك أو شغب تركت أضواءها الشحيحة ونفوسها التى امتلأت ضغينة ، ألفت الظلام وألفنى ، أشعر فيه بالإطمئنان ، الكل فى القرية ينام الخائن والمخون والعاقل والمجنون والكبير والصغير والرفيق والصديق يتشابهون فى نومتهم يختلفون فى قلوبهم ، خلفى القرية تنعى ساكنيها وأنا أغرق فى ظلام دامس وفجأة رأيته شبح ضخم البنية قطعة من ظلام تتطاول فى البنيان كلما إقتربت ، شعرت بالخوف للحظة ولكن سرعان ما انتهيت منه حين شعرت بأن الآخر قد يكون أجمل من البشر لنتحاور فلربما وجدت لديه الخلاص .

بادرته بالسؤال .. من أنت ؟

- بل من أنت ؟

- أنا رجل أتيت للظلام هربا من النور المخادع ..

- وما أتى بك إلى مملكة الظلام من المفترض أنك الآن مثلهم ترسف فى قيود النوم الذى جعل لسطوتكم نهاية ولظلمكم استراحة ، ساعات وتعودون لتمارسوا ما قد تركتموه فى نومكم .. ولا تعلمون أن النومة الأخيرة قادمة لا محالة ..

- إن ما أتى بى هو ما قد أشرت إليه كفرت بأفعال أولئك الموتى ، لا خل يرافقنى لنفسي ولا حبيبة تعانق قلبى وتجعلنى لديها أكبر الهبات التى حظيت بها ، صار الناس ذئابا ينهش بعضهم بعضا ، يبيت الرجل راضيا عن زوجته فإذا ما اخلد إلى النوم هتكت الحجب وفتحت الأبواب لترتمى فى أحضان غيره وهو أيضا يرتمى فى أحضان أخرى ، حتى الأخوة يا صاحبى قد صارت تقترن بالفائدة وإن قلت المنفعة ليس لك ثمن عند أحد فذاك اختصم وأخاه فى الإرث ، وذاك بسبب الزوجات وآخر بسبب الأطفال ، وهذا وهذا .. الكل محمل بالغل والحقد ، الكل فى تيه وضياع ولا تجد من يحنو عليك .. فأية حياة تلك وأى عيش نرتجيه إن كانت الغابات أفضل من عيشنا معا ..

صمت الشبح لحظة ثم قال فى لهجة ملؤها اللوم والغضب معا :

أنظر لمرآتك صديقى ، واسأل نفسك هل أنت صديق وفى ؟ .. هل أنت أخ يعتمد عليه ..؟ هل ترى فى نفسك حبيبا صادقا يقبل بالتضحية بأى شيء من أجل سعادة محبوبته ؟ العين ياصديقى ضريرة عن رؤية العيوب بصاحبها ثاقبة البصر فى عيوب من حولها ، ترى العوار فى الغير ولا ترى فى نفسها نقيصة ... ولكن إعلم أنى أعرف عنك أكثر مما يعرف عنك أى أحد أتذكر حين أقسمت لها على المحبة والإخلاص وحين إنتهى لقاءكما كنت ترشف القبلات من ثغر غيرها ؟ أتذكر حين صارحك صديقك بشيء فاستكثرته عليه وجاهدت وحاربت لنيل ما لصديقك كى تستأثر به لنفسك وتركته ينعى عما افتقد ؟ أتذكر حين استنجد بك أخيك فتركته

ونمت ملء الجفون عن شواردها ؟ أتذكر حين عرفت أحدهم بغية شيء ما ولما ظفرت بما أردت تركته ؟

صرخت به : كفى .. ما أدراك بهذا ؟

قال: أن لست بشبح أيها المغيب أنا ظلك وضميرك الذى حاولت منه فكاكا .

وما تحركت شفتاى بكلمة بعدها بل إنى عدوت نحو القرية وهو يعدو خلفى ويتضاءل يتضاءل حتى انمحى ، ومحيت معه كل تلك الأفكار التافهة التى حركتنى من مقامى ، وعدت للقرية وأنا أشعر بالخزى فإن أفسق النائمون فى قريتى أفضل منى ألف مرة ، يا لى من حقير تافه أرى فى نفسى الكمال وفى غيرى النقيصة والعوار غابت عنى حقيقتى وفضحنى ظلى ....

لمن الحب اليوم ...؟

تُقبل الشمس على أهل القرى وقد دأب كل من فيها سعيا إلى لقمة العيش ، قوافل غادية إلى الحقول فى جو مفعم بالألفة والبسمة الحلوة تصبغ الشفاه ، الكل يتبارى فى إلتقاط التحية ممن يسيرون على نفس الطريق ، اختلط صوت الناس بثغاء الماشية ونهيق الحمير فكوّن سيمفونية عذبة كموسيقى بيتهوفن كل متخصص فى صوت ما ليكتمل اللحن ، وهناك فى أطراف القرية وفى بيت متواضع قد بُنيت حوائطه من الطوب اللبن تعيش أسرة صغيرة مكونة من فردين أم وبنتها منذ نعومة أظفارى ما علمت لهم من أهل ، كعودى ذرة نبتا فى تجاور لا أقارب لهم ولا مريدين اللهم إلا الطامعين فى استراق نظرة إلى جميلة البيت " نعيمة " التى حباها الله بكل جمال فى خلقتها حيث العينان النجلاوتان والشفاه الملتهبة التى أحسن الله فيها صنعا والوجه المستدير شديد البياض أنف مستقيم ومتناسق مع الوجه والعينين الخضراوين يزيد على ذلك الجسد المستقيم والقوام المشدود ، تعيش مع والدتها العجوز وشتان بين الإثنتين فأمها عجوز شمطاء لا تستطيع الاستقامة إلا إذا استندت على الحائط البالى كعمرها الضائع جسد من العظام يكسوه جلد قد صبغه الزمن بالتجاعيد والنقوش البنية التى انتشرت فى أرجاء جسدها ، وجه قد خط عليه الزمان سطور ملحمة من الضياع حاجبين قد كساهما بياض أشبه بالثلج

كشعرها الذى بدا من تحت عصابة رأسها ، تولى البصر منها حتى لكأنها لا ترى حتى صوتها قد استعيض ببحة خفيفة لا تكاد تسمع إلا عن قرب ، تتزين صاحبتنا كأروع ما يكون لتخرج إلى الشارع فى كامل بهاءها وزخرفها ، تتصارع أعين المارة والجالسون بالشوارع لاقتطاف ثمرة من عينيها أو إختلاس نظرة لجسدها البض ، إمرأة يهواها الرجال ، يمقتها النساء إما لشعورهم بالنقص حين رؤيتها أو لغيرتهم على رجالهم وذويهم من سلاحها الفتاك ... تمضى بالشوارع مارقة يفوح فمها بأعذب التحيات لكل من مرت بهم ، تمر فى طريقها على عم " سعيد " الجزار تمنحه تحية يسيل على أثرها لعابه الملئ بالنشوة والرغبة فى نيلها تعمل يديه فى آلية اعتاد عليها فى حين أن عينيه لا تعمل اللحظة عمل الجزارين بل تبحث فى مفاتن " نعيمة " .

- صباح الخير ياعم سعيد .

- صباح الفل يا نعيمة .. نهارنا نادى إن شاء الله .

- عايزة نص كيلو بس استعدل فى القطعية ..

- عينى قبل ايدى ... اصطباحتك عسل .. مش هتحن ياجميل ؟؟

- عيب عليك يا عم سعيد دا أنا من دور بناتك ..

وتضحك ضحكة ترتعد فيها فرائص الرجل حتى أنه ما علم ماذا يفعل ويكاد السكين أن يقطع يده ، يظل فى هيمانه حتى تقطع زوجته الطريق عليه فتصرخ فيه " خلى بالك من اللى فى إيدك يا راجل .. رجالة آخر زمن .. بس العيب مش عليك العيب على صاحبة العيب اللى ماشية تتشخلع زى الفُجر .."

ينتبه عمى سعيد لما بين يديه من لحوم ليصفيها من العظام ويده فى اللحم وقلبه وعقله فى نوع آخر من اللحم ، يحلم بليلة تطول عليه وهى بين أحضانه ، بلا رقيب ولا منافس ليلة من عشق دافئ بين أعطاف " نعيمة " تلك الفتاة النضرة .

قس على ذلك سيدى القارئ كل من مرت عليهم الخضار والبقال حتى بائع العرقسوس الكل يشتهيها ولكن ترى من تشتهى ؟؟؟

****

فى بقعة جنوبية من قريتنا تقبع مقابر البلدة ، مكان مقفر تعس لا يحمل إلا الموتى فى اللحود والقمامة على اطراف الجبانة وبعض النخيل الشاهق الارتفاع ، كان للمقابر فى بلدتنا حكايا وقصص فمنها يخرج الأشباح ليلا فى رواية بعضهم ، وفيها يسكن ثعبان كبير قد حكى بعضهم بأنه قد رآه وتباينت الروايات عن حجمه وطوله والمنطقة التى يقبع فيها ، قدسية كانت لها ، وخوف أيضا فهى تقبع فى مناطق الخطر فى توقيتين من اليوم فى الظهيرة حيث الناس نيام وأخرى بالليل حين يرخى أستاره على القرية ، كم عُقدت رهانات على من يذهب إليها ليلا ليثبت شجاعته لمن حوله من المراهنين ثم يعود ليحكى عن مغامراته التى نسجها من وهم خياله ... نعم خياله فلو أن بها ما بها ما أقام " صابر" بها وصابر هذا رجل أشعث أغبر قد تزاحم الذباب على وجهه وتصبغ جسده بما علق عليه من آثار نومته فى بقعة ما بين المقابر ، وجه أسمر البشرة مجعد الشعر لا مآل له ولا مأوى سوى مجاورة الموتى وله فى ذلك حكمة أن من حوله طيبون لا يثيرون المشاكل ولا اللغط ولا يحدثون ضجيجا يعذب منهم من يعذب ولكن بلا صوت ، يعيش بينهم قدر ما يعيش فى رغد ولكن دونما ظلم ، الكل متساوون فى رقدتهم يأكلهم الدود ولا يتألمون ، يطن حولهم ذباب أخضر يأكل ما تبقى من أجسادهم ولا يهب أحدهم للدفاع عن نفسه ، مسالمون

وعالمون بنهاية المطاف فلا سبيل لديهم للخروج عن النواميس الموضوعة لا ثورات ولا نزعات ونزاعات الكل يعلم أنه لا محالة زائل لذا فهم يتركون ما يأكل فى أجسادهم على رسله حتى ينتهى ، يعيش صابرنا على ما يهبه البشر الأحياء له فتارة يأكل وأخرى يجوع يناجى فى كل ليلة أشباحا هى أطياف من نسج حائك أوهامه ليلة يعيش مع إمرأة جميلة وأخرى مع طفل يهدهده وأخيرة مع رفاق يقضون سامرهم معه ثم يتركونه بلا أنيس سوى الظلمة و عرير صرصور الليل الذى ينادى ويغازل به أبناء جنسه ، وفى الصمت صوت يرهق الأسماع ، ذات ليلة سمع صوتا هناك على أطراف مملكته الصامتة تعقب المصدر حتى رأى أحد المتسكعين يقف على مدخل الطريق المؤدى للمقابر وما هى إلا لحظات وظهرت أنثى تركض هاربة كأن هناك من يتعقبها ، استقرت فى أحضانه ومضيا إلى الظلام والظلمات داخل المقابر تابعهم حتى قضى الرجل منها وطره ، أتلك بعض من خيالاته ، لا بل هى حقيقة .. هذا ما دار فى خلد صاحبنا وهو يتابع المشهد الساخن الذى قاد الشيطان موكبه إلى ركنه الهادئ ، ألهذا الحد قتلت الشهوة والرغبة خوف أولئك من المقابر ، هل شوقهم للفجور أقوى من خوفهم من القبور أما اتخذ الآدمى الظالم من الموت عظة وعبرة ،؟ ألا يعلم أن المآل والمستقر هاهنا أما يدرى أن كل ما يريد إشباعه مصيره للتراب ؟؟ أى حماقة تلك ؟ كان ذلك رجع أنين صابرنا الذى آلمه ما رأى ..

****

مرت " نعيمة " فى جولتها الصباحية التى عادت منها خالية اليدين لا لبخل من ألقت إليهم السلم والطلب بل لأنهم أخبروها ان تمضى إلى بيتها وهم من سيقوم بتوصيل ما أرادت إلى دارها طمعا منهم فى القرب منها والشعور بأنفاسها الملتهبة ونداء الرغبة المرفرف حول جسدها المغرى ، كان أول من دق بابها الجزار الذى

سلم عليها لتلمس يديه يداها فيشعر بما صبا إليه ولكنه هذه المرة طلب منها المزيد فقد طلب منها لقاءا فى جنح الليل ليرتقى من درجة العاشق إلى درجات أقوى قد تصل إلى الصبابة أو الكلف أو الغرام لكن تلك المعانى لم تكن ما يقصده صاحبنا إنما قصد المطارحة وفراش من الملذات ولعل أسهل الطرق للخروج من الإلحاح مجاراة الملح فأخبرته أنها ستراه ليلا عند المقابر ، ثم كان الفرّان الذى شغف بحب صاحبتنا فواعدته نفس الميعاد ، وكذلك الخضّار والبقال ، وفى الليل حيث الناس نيام قامت صاحبتنا تحمل بين طيات خمارها شيئا تخفيه حتى عن أنظار من ناموا وأمها الشمطاء بالداخل تنادى لتسألها إلى أين لكن لا مجيب لصيحاتها مضت تقطع الشوارع والدروب متجهة إلى المقابر وهناك على مرمى بصرها رأت ثلاثتهم فى الطريق إلى الموعد المرتقب وصل منهم من وصل والآخر ما زال فى طريقه أما هى فقد سلكت طريقا فرعيا يؤدى أيضا للمقابر ووصلت إلى حيث إتكأ صابرنا فى ظل إحدى المقابر وتهللت أساريره حين رأها مقبلة عليه ، أخذها بين أحضانه ودفعت بما أخفته تحت خمارها فإذا به طعام طهته من لحوم وطبيخ وضعته فى حجره ، أكل بنهم وهى تهديه بين اللقيمات قبلات حرمت منها من هم ينتظرون على الجانب الآخر فى لهف للقياها ، هى الدنيا الكل يرنو نحوها وهى فقط التى تختار من تهبه من جمالها وحنانها لمن لا يملك من تراب الأرض ذرة وتحرم من أرادت حتى لوكان صاحب حلة وجلباب .

عنصرية

حان وقت الرقاد على البيض باضت البطة خمسة بيضات ، واشترت السيدة بيضتين أخريان من جارتها ووضعتهما بين البيض ، وبعد بضع وعشرين يوما خرج الصغار تنبش أظفارهم الصغيرة أديم الثرى ، الكل متشابهون إلا واحدة لونهم أصفر يميل للإخضرار إلا تلك المسكينة تتشح بالسواد ، تجمع الصغار معا تصدر منهم بطبطة هى أشبه بالصرير ،ومنح لقب مسكينة للبطة السوداء هو لقب بسيط بالمقارنة مع ما حدث لها من رفاقها الصغار وأمها التى احتضنت بيضتها ، فقد زجرها الجميع حين أرادت أن تشاركهم اللعب وانهالوا عليها بمناقيرهم المدببة حتى تولت هاربة بعيدا عنهم ، ولو أن بعينيها دموع لذرفتها بغزارة على ذاك الألم ، جاءت السيدة ببعض من الذرة المدشوش وحبات الأرز وألقت بها ليأكل الصغار فجرت مقبلة على الطعام وحينما لامست طرف الإناء زادت الصيحات من الصغار واجتمعوا عليها بضربة منقار أدمت وجهها ورقبتها وجسدها الهزيل الغض ، وما كان منها إلا أن ابتعدت مولية ظهرها وهم ما زالوا يطاردونها حتى كادت أن تلقى حتفها ، ركنت إلى جدار الحظيرة فى سكينة تكفكف الجراح والدماء المنبثقة من أرجاء جسدها ،ولسان حالها يقول لماذا يحدث لى كل ذلك ؟ هل اختلاف لونى هو السبب فى ما ألاقى من ويلات وجراح ؟ وماذا اخترت أنا فى تلك الأشياء ؟ أنا

ما اخترت لونى ولا نسبى ولا حياتى وموتى فلم يعاقبوننى على جرم ما ارتكبته – إن كان هذا جرما - ؟ ولكن عزائى أنما الأيام قد تثبت لهم أنى مثلهم جئت كى أحيا وأملأ الأرض صغارا ولكنى سأربى صغارى على قبول الآخر لا الهزء به ومعاداته لمجرد أن لونه مخالفا .

مرت الليلة ثقيلة عليها وهى تتمزق من ألم الندوب التى انتشرت بجسدها ، وهمت وهم نيام أن تمتشن بعض من طعام أو ماء يقيم جسدها ، لكنها خافت أن تقوم تلك المناقير الدقيقة فتدق رأسها غفلت عيناها آملة فى صباح جديد يكسوه السلام والوئام والمودة لها لا سيما وهى تشعر أن بين ضلوعها قلب محب ، لا يحمل ضغينة لأحد حتى وهى تضمر الجراح فى جسدها لاغضاضة لديها فى الصفح عن الجميع إذا ما احتووها فيما بينهم .

وجاء الصباح بإشراقة عذبة وقام الشياطين الصغار وجرت إليهم متهللة الوجه وكلها أمل أن يكون الليل قد محى أفكارهم الرجعية ، لكن ما أن رأوها إلا وعادوا كرتهم وفعلوا كما فعلوا بالأمس فيها غير أن ما زاد الطين بللا وألقى الضغث على الإبالة أن أضيف إليهم منقار جديد وشديد ، كان المنقار لأمها التى أسقطتها بوابل من الطعنات حتى كادت أن ترديها صريعة ..

دلفت السيدة إلى الحظيرة حاملة طعام الصباح لساكنيها ورأت صغيرتنا قابعة فى أحد أركانها وهى ما فتأت تضرج بالدم فى أرجاء جسدها بلا حراك أو أنفاس فظنت أنها ماتت فحملتها من إحدى قوائمها وألقت بها إلى سلة للقمامة سرعان ما حملتها على رأسها لتلقى بها على جسر فى أطراف القرية تجاه الحقول ، أفاقت المسكينة لتجد نفسها وسط كومة من القمامة يقطع الجوع أحشائها وتمزق الآهات صوتها الذى لا يكاد يخرج من حنجرتها الدقيقة ، اقتاتت من بعض فتات الطعام

الملقاة فى كومة القمامة واحتاجت للماء فوجدت بعضا من الماء الراكد حول مسكنها الجديد ، مرت الأيام عليها وهى ترى فى كل يوم جسدا هائلا يأتى لينبش القمامة فيأكل مما يحصل عليه منها ترتعد فرائصها من هول ضخامته وأسنانه تتوارى كي لا يراها ، فلقد آلمها ذوى المناقير الصغيرة فما بالها لو باتت بين هذين الفكين ؟

فى كل يوم تلتئم الجروح وتضمحل حتى انتهت وبرأت مما فى جسدها من سحجات وندوب وترى بين الفينة والفينة سيدتها العجوز التى ألقت بها إلى تلك الكومة هاهى الآن مقبلة لتلقى قمامتها توارت عن نظرها وبعدما مضت السيدة هرولت المسكينة إلى القمامة علها تشتم فيها رائحة الحظيرة وبقايا مما لمسته أقدام وأفواه أمها وأخوتها الصغار !!!

ما زالت تحبهم حتى بعد أن أذاقوها مر العذاب فإذا بها ترى ما بين القمامة أحد الصغار تفطر قلبها وذهبت ناحيته تقلبه ذات اليمين وذات اليسار لكن لا محالة ظلت تنظر إليه وجذبته من إحدى أرجله حتى جعلته قريب من مخبأها وذهبت سريعا فى طلب الطعام لهما وأتت بالطعام وحاولت جاهدة إطعامه وهى لا تدرى أنه قد مات ،ويوم بعد آخر رأته يتضاءل حتى اختفى عاد لما خلقنا منه ترابا تذروه الرياح ، علمت حينها أنه مصير محتوم وقد انتهى من ظلمها فى يوم قد مضى وها هو الآن ترابا ترى لو علم بأن نهايته ستكون بتلك الحقارة أكان يظلم للحظة فى عمره ؟

يقطع عليها حبل افكارها هذا الجسد العملاق ها قد رآها إنها لا محالة ستكون مضغة فى فمه الذى سال لعابه ، ولكن ما أدهشها أنه لمم بعض القمامة ومضى بعيدا على الرغم من رؤيته لها .. تعجبت أكثر حينما رأت ذا الموقف فهى التى انتهرها

الجميع من أبناء جنسها وألهبوا جسدها بمناقيرهم الحادة أى هزلية تلك يقبلك من هم بغير جنسك ويرفضك أبناءه ؟

تقطع قلبها شوقا لرؤياهم فقررت أن تتبع خطى السيدة حتى تصل إلى البيت ومن ثم للحظيرة فتلتقى أمها لاسيما وقد صارت الآن شابة فتية قد شب عودها وكسا اللحم قدميها وطال الريش فى جناحيها وجسدها ، وجاءت السيدة فتعقبتها حتى وصلت للبيت وتسللت إلى السلم ومنه إلى الحظيرة قلبها يجرى قبل قدميها تذكر وجوههم وأجسادهم ومناقيرهم أيضا ، ورأتهم وقد تغير كل شيئ فقد صاروا أشباها نفس الريش الأسود المختلط بالأبيض ، نفس الجسد والصوت تهللت برؤياهم لكنهم حين رأوها جروا إليها وكأن ذاكرة الشر قد عادت سبقتهم مناقيرهم إليها وفى هذه المرة لم يكن كونها شاذة عنهم بل كونها غريبة عن دارهم ، غريب عالمهم فهم يكرهون المختلف والغريب عاشوا على ما ورثوه وكرهوا ما استجد على دنياهم ، يرفضون التغيير .. وفى هذه المرة دافعت عن نفسها وبقدر الحب القابع فى قلبها تبدل إلى قوة فى الذود عن نفسها فخافها الجميع وصارت سيدة للحظيرة تأكل قبل أن يأكلوا وتشرب قبل أن يشربوا ما كانت تتمنى أن تصير هكذا لولا اضطرها الجميع لذلك فصارت تأخذ الحق عنوة وغصبا ، وما أشبه عالمنا الظالم بعالم البط غير أننا صرنا أقسي منهم فى شتى جوانب الحياة ، الكل يغرد بطريقته ويعيش على عاداته قابعا على فننه يبحث عن سعادته وراحته وسلطانه دون النظر إلى من يشاركونه الحياة وفى طريق بحثه عن ملذاته يدق رأس غيره ، وما الحياة إلا تشارك وحب فإن انتهى الحب من القلوب فقل على الدنيا السلام .

ظلال الخوف

صحا أهل القرية ذات ليلة على صوت عال وضجيج وجلبة ، صوت أخذ بنياط القلب من علام السكون والطمأنينة إلى عوالم من الخوف والفزع ؟، صوت هو اشبه بالنفخ فى الصور ليوم القيامة أصاب جميع من بالبلدة بالهلع ، تساءل الناس عن كنه هذا الصوت ولكن لا مجيب ، قال أحدهم بأنها علامات القيامة فأشار العالم أن للقيامة أحداث لا بد أن تسبق النفخ فى الصور ، فأردف آخر أنها لابد غارة للحرب ولكن أى الحروب تلك فما عدنا نخوض حروبا إلا تلك الحروب الإعلامية القميئة التى تصدر من تحت أقدام الحكام لضمان بقاؤهم فى سدة الحكم ، حرب ضروس لشيطنة من يعارضون الملهمون من الحكام الذين اختارهم الله برعايته وعدله لحكم البلاد .. فنادى آخر أن تلك هجمة للجن قد كانت لأننا نقلنا مقابرنا التى سكنوها فقد أفسدنا عليهم حياتهم الآمنة .. ولم يرد أحد على هذه الشبهة فقد إنشغل كلٌ بأمره وتجمع الناس فى زمر الكل يهذى بما سول له عقله وصورت له حفيظته وأفكاره وبات القوم ليلتهم يقظون لا يغمض لهم جفن حتى أن المساجد إمتلأت عن آخرها فى صلاة الفجر كأنها صلات أحد العيدين ، وبزغ النهار والكل فى انتظار النيل من مصدر الصوت الذى اقض مضجعهم ولكن لا جديد ذهب

الجميع إلى حقولهم هى كما هى لا جديد لديهم ساكنة كما تركوها بالأمس ، صارت قصة تتردد على الألسن لا شيء فى كلماتهم سوى الليلة الماضية وما حدث فيها ، قضوا يومهم الرتيب بنفس الترتيب والجدولة التى ورثوها عن أجدادهم وسيورثونها لأبنائهم ،مضى النهار برمته ولا جديد فى الصوت فتجاهل الناس قصته ومضت لحظاتهم وخلدوا للنوم وفجأة انتفضوا من فراشهم على نفس الصوت فى ذات الوقت ، فتشجع أحدهم وتحركت الرجولة فى دمائه الحارة وأصر على تتبع الصوت فوجده صادرا من الحقول المترامية على أطراف القرية ،فأصر على المُضى قدما إلى مصدر الصوت فى نظرة لوم من زوجته ونظرات من الفزع من أولاده الصغار واخترق الرجل الظلمات وما أنصتت أذناه لصيحات من حوله المطالبة بالرجوع خوفا عليه ، ولكن لا صوت يعلو فوق صوت الجرأة والإقدام كأنما يساق صاحبنا لحتفه رغم أنفه مضى والفرائص لديه ترتعد كأنما الزلازل كان مركزها جسده الهزيل سمع قرقعة وصخبا فكأن الخوف حل محل الدم عنده فصار ما يجرى بشرايينه خوفا قاسيا،تداخلت الأصوات فى أذنيه فتارة يسمع عواء الذئب يشق صدره الخوف كلما علا ، وتارة يسمع عرير صرصور الحقول وتارة نقيق الضفادع وكل ذلك طبيعيا كم كان يسمعه فى ليالى الرى فى الحقول ليلا حين كانت المياه شحيحة فاستلزم ذلك السهر لرى الحقول ، لكن ما لم يكن معتادا هى تلك الأذرع الطويلة التى تتحرك يمنة ويسرة وكأنها اقتطفت من الظلام مدامسته لتصنع تلك الأذرع المخيفة قلبه جرى نحو القرية قبل جسده تعثرت قدماه فى طريق العودة فى الجلاميد ولكن كيف به أن يشعر وهو الوجل الذى يهرب من شيء ما تضرج وجهه بالدماء حين وقع فهو يجرى للامام ووجهه ينظر للخلف خشية أن تقتنصه تلك الأذرع التى تعدو خلفه ، وصور له خياله أن وجها كبيرا يملأ السماء قد بدا له وعكف على تعقبه ، ظل يقع وينهض ويقه أخرى وينهض ثم يصرخ من الألم ولا مجيب فعند حافة الظلام ينتظر

أهل القرية الخبر اليقين وأخيرا وصل إليهم بين صيحات الدهشة والفزع وصراخ أطفاله وزوجته التى ألقت اللوم عليه كان يلتقط أنفاسه بصعوبة كأنما يحمل فوق صدره حجرا ، يحمله بأنفاسه ما فكر من حوله فى إسعافه قبل تفكيرهم فى سؤاله عما رأى فما استطاع الجواب البتة فحملته زوجته وأبنائه للدار تاركين أهل القرية فى زمراتهم يتساءلون عما قد صادف صاحب البطولة والإقدام ، ورأوا أن يذهبوا لداره علهم يجدون إجابات لأسئلتهم التى صدعت رؤوسهم ، فما أجاب الرجل سوى بالأذرع الكبيرة والوجه المغطى للسماء والمطاردة سالفة الذكر بل أضاف أنه سمع صوتا يندد الجميع بألا يذهبوا لحقولهم وإلا أصابهم ما أصابه ، زادهم ما سمعوا حيرة وتلكؤا فى طلب الرزق وعزموا أمرهم أن يظلوا فى جحورهم حتى يأذن الله بالجديد وتمر الأيام وكلٌ قابع فى بيته وزادت الحاجة بعد انتهاء المخزون من طعامهم وطعام ماشيتهم حتى ضروع البقر قد جفت من منابعها فلا لبن بدون غذاء والغذاء لا يكون إلا فى الحقل ، أما الحقول فقد عطشت للماء وذبل فيها الزرع ومع طول المدة التى هجروا فيها الحقول مات الزرع وتشققت الأرض من قلة الماء وصار كل ركن مقفر مجدب تعس لا حياة سوى فى الأكواخ والبيوت ، حياة هى إلى الموت أقرب استبد بهم الجوع حتى أخرجهم من ديارهم فالموت الذى سيفنيهم جوعا هو نفسه الموت الذى سيلاقونه إذا وقفوا ضد طاغوت ذى الأذرع الطويلة والوجه المخيف ، وأجمعوا أمرهم على ملاقاة الموت واستعدوا ليوم الكريهة وخرجوا فرادى وجماعات لا يحملون فى أيديهم سلاحا ولا تروسا فقط أحلام أبنائهم والجوع الذى يعربد فى أحشاءهم والهروب من الموت إلى الموت ، ما عاد يرهبهم ما أجلسهم فى بيوتهم فإما الحياة الكريمة أو الموت تحت أيدى الطاغية الذى نغص عليهم دنياهم وكدر عليهم صفو الحياة ، وصلوا للحقول فرأوا جدبها وقفرها ووحشتها وقد صارت زراعتهم هشيما ذرته الرياح يمنة ويسرة السكون يعم كل شيء اخترقوا القفر إلى

قفر مثله وما وجدوا ذو الذراعين والوجه ولا حياة لفرد هناك من الأساس وما كان الصوت إلا صوت خوفهم وضعفهم واستكانتهم ، وما كان تفسير صاحبنا الهمام فى البداية إلا اختلاق من وحى أوهامه صورة للخوف حين يملأ القلب تنعكس فى أقوى صورها لتجعل منه ريشة فى مهب الرياح وشراعا يتمادى ولكنه مطأطأ الرأس ، نحن البشر نخلق من أوهامنا ما يكدر صفو أحلامنا ، نحفر أمامنا الطرقات كى لا نمضى للأمام ، نخاف ذو الجاه والسلطان ورب الجاه والسلطان لا نخافه ، نتشدق بخوفنا من الخالق ونحن من المخلوق أخوف ، نصنع الأصنام بأيدينا وفى النهاية نسجد لما صنعت يدانا .

عاشت فى قلبه

استيقظ فى وقت مبكر من الصباح ، لم يقم برتابة ما يفعل كل يوم ، فمن الطبيعى والمتعارف عليه والروتين الذى اعتاده أن يقوم من نومه يتناول إفطاره ثم يرشف كوبا من الشاي فى شرفة منزله يتابع الغادى والرائح أمام منزله الكائن فى إحدى المناطق العامرة بالسكان ، منزل صغير يدل على حالته الميسورة بأثاثه الفاخر وحواشيه الباهظة الثمن ، وعلى ما يبدو يعيش عجوزنا بمفرده كيف ولماذا قد توضح بعض أفعاله ما قد جعله وحيدا فى تلك الدار .

نزل درجات السلم فى تؤدة وبطء يجر قدماه المنهكتين ناحية شيء ما خرج من شارعه حتى إنحنى يمينا ثم يسارا ثم عبر الشارع المتسع ليصل إلى منطقة أقيمت فيها القصور على طرفى الشارع ، مبان شاهقة حملت من الجمال مالم تستطع العين الإلمام بما بها من روعة زخرفة وجمال المبانى العتيقة ، قصد صاحبنا إحدى القصور وكان مهجورا ، أشجاره العتقية كمبانيه تهدلت منها الأفنان والغصون ، وجف كثيرها ولكن الأشجار فى إصطفافها منذ أعوام خلت ، رجع بالذاكرة إلى الوراء أربعة عقود مضت ، كان هو آنذاك فى ريعان شبابه وعنفوان قوامه ، وقمة شقاوته وإنطلاقه حين كان فى رحلة عودته من الجامعة يمر بين تلك المروج الملحقة بالقصور المشيدة لتلك الطبقة من الشعب والتى ملكت زمام الأمور ودفة الحياة فى مدينته ، أما هو

فلا يملك من حياته سوى أم فقيرة أرملة مات عنها زوجه وتركها بوحيدها فى الحياة تعاند الريح وتكسر الموج لبقاء كليهما على وجه البسيطة .

كان فى طريق عودته هو وصديقه الأكثر شقاوة منه يمرون بين تلك القصور لينالوا من أشجارها بعض الثمار التى لا تنضب صيفا وشتاءا فتلك شجرات التفاح وتلك للمانجو وأخرى للرمان وأخرى للبرتقال وهناك العنب وهنا نخيل التمر ، ولعل ما جعله يسعى جاهدا للنيل من تلك الثمار هو أن ما تدخره الأم المسكينة من بيع الخضار لا يفتأ أن يسد رمق جوعهما أما الفاكهة فتلك للأغنياء فقط .

سار وصديقه إلا أن وصلا للقصر وعلى أسواره قد تدلت الفروع بلا ثمار فكم من زائر مضى من نفس الطريق وكان له ذات الهدف فما أكثر الفقراء فى بلده ، فتشاور وصديقه ما الحل فى هذا ؟ فأشار إليه بتسلق السور فما بين أيدينا نعفه وما ابتعد عنا لا شك أنه أفضل حكمة تافهة فما بين أيدينا سيدى القارئ هو بعينه ما بين أيدى غيرنا لولا تطلعنا إلى ما فى أيديهم وقد يكون ما نملكه أعظم وأجمل ولكن الشيء فى يدنا بعض من الملل وما بأيديهم لا شك أفضل .. نعود لصاحبينا اللذان عقدا نيتهما على تسور القصر وسرعان ما كانا بين الأشجار الوارفة والثمار الناضجة فجنوا منها ما جنوا ثم تسوروا خارجين ، ولم تكن تلك النهاية بل صار مقصدهم فى كل يوم ذاك السور وتلك الأشجار ..حتى حدث ذات يوم أن تسلقا الشجرة وتمتعا بالجنى والقطاف وعند نزولهما وجدا مالم يتوقعا "عوض " خفير القصر وبوابه كان ينتظرهما أسفل الشجرة وأمسك بتلابيبهما ولكن استطاع المراوغ أن يفلت تاركا صاحبنا فى قبضة "عوض "ارتعد من هول ما قد يحدث فماذا سيُفعل به فى هذا القصر ؟.. نادى عوض بصوت جهور فخرج رجل يبدو من

هندامه المنمق ومنظاره الملقى على أرنبة أنفه وشعره الثلجى الناعم وبيجامته الفخمة أنه رب الدار وصاحب القصر ..

- من هذا يا " عوض" ..؟

- هذا لص رأيته وصاحب له يسرقون الثمار من الحديقة ولكن صاحبه أفلت منى ..

نظر صاحب القصر إلى الشاب نظرة ملؤها الإشمئزاز والتقزز ثم أمر " عوض " بتركه بعد التهديد أنه لو رآه هنا مرة أخرى لن ينال سوى الجلد والعذاب .. انفرجت أسارير صاحبنا وقفز موليا ظهره للقصر وفى نظرة أخيرة للقصر رآها تطل كالشمس المشرقة من شرفة القصر ملاكا فى هيئة بشر شعرها الذهبى المنسدل على كتفيها وعيناها اللتان تشعان كعينى هرة تلمعان من بُعد ، ووجهها المرمرى الناعم وشفتيها التى رسمت ابتسامة لا أروع ، لا يدرى إن كانت له أم عليه ولكن يكفى أنها ابتسمت .. ترك القصر ولا شيء فى ذهنه سوى تلك الثمرة التى ما جال بخاطره اقتطافها .. يذكر أنه لم ينم ليلته تلك متفرسا فيما تبقى له من صورتها فى مخيلته .. عزم فى عودته باليوم التالى على أن يتسور القصر مهما كانت العاقبة فقد جاع قلبه لرؤية ذاك الملاك القابع بالشرفة ، تكرر مكوثه على حافة السور كثيرا وعلى الرغم من نضج الثمار إلا أنه ما نظر إلى ثمرة واحدة فقلبه صار شغوفا بنوع آخر من ثمار تقطع القلب شوقا إليها ، ثمار تنضج فوق أشجار حنانها وبسمتها الطازجة ، والغريب أنها تهبه من تلك الثمار كثيرا ربما عن قصد او غير قصد لكن الأعين تلتقى والقلوب ترفرف ، وما الضير فى أن يهبط القمر من علياءه لترتسم صورته على ماءه الراكد فى وحل أيامه وطين فقره ..

استمر على تلك الحال حت جاء ذات نهار ونزلت من عليائها لتنزله من على السور فى عجب من لدنه وصمت من عوض الذى رأى ذلك بعينيه دون أدنى حراك ، فما له برغبة سيدته إن ارادت حتى أن تسامر لصا ، ما عليه سوى الطاعة العمياء والصمت الرهيب وتكتم ما رأى نزولا لرغبة سيدة القصر ، كان اللقاء هبة لمريض القلب فقد أمطرت عليه سيولا من حنان وفيض من حب ما كان لينال ذلك حتى فى أحلامه البسيطة ... هل ابتسمت له الحياة فجأة ؟ ما قيمة الحياة بدونها وما قيمة العمر إن لم يكن فى لقياها .. وهيهات أن تستمر الحياة فى رونقها فقد هبت رياح البعد والضياع حين ذهب للسور فوجده قد أحيط بالسلك الشائك .. حاول مرارا تسلقه لكن الأسلاك أدمت كفيه ، وأدمى البعاد قلبه وهجر النوم مقلتيه ، وذات يوم أحس بالأشواك قد سرت فى بدنه وقضت مضجعه ، حتى أن سريره صار شائكا وسريرته صارت مرتعا للشوك والآلام .. فأصر على اللقاء مهما كانت النتائج فما فائدة الحياة إن لم تكن فيها وما فائدة المكوث فى دنيا لا يراها بها ..؟

نزل من حجرته الضيقة ذات الأثاث المتواضع قافزا فى الشوارع لا قدمان تسيران على الأرض بل قلبا يجر خلفه الجسد المضنى من اللوعة .. تقدم إلى القصر فوجد " عوض " بالباب فاستأذنه بالدخول لكن عوضا هذا آلة تنفذ ما يُطلب منه مهما كان لا قلب لديه فى حالة المنع ولا يدان تربتان إلا بالأمر وتبطش أيضا إذا ما أُمر بذلك .. زجره وما سمح له بالدخول .. وزاد صاحبنا فى التوسل والبكاء فكل الوسائل متاحة للوصول إلى هدفه وصعق حين سمع خبر ارتباطها بأحد من على شاكلة أبيها ، أدمى الخبر قلبه وما زاده إلا إصرارا على طلبه بالولوج إلى الداخل لرؤيتها فسمح له " عوض " على أن يبقى فى حجرته الملحقة بالحديقة ويخبر هو السيدة لتأتى لمقابلته فجاءت إليه وقد إسوّد ما تحت عينيها بكت كثيرا وإرتمت فى أحضانه

مستجيرة به ولكن ما حيلة المسكين إن ما يملكه فى الدنيا لا يساوى ثمن حذاء لها وتفطر قلبه لدموعها ولم يتردد للحظة فى الجرى إلى الداخل مناديا على الباشا فخرج إليه بنفس نظرة الإشمئزار والنفور هز رأسه كأنما يسأل صاحبنا عن مراده .. فأجابه بأنه طالب يد ابنته !!

فاستشاط الرجل حنقا وغضبا مذكرا إياه بموقف الثمرات التى سرقها من قبل وذكره بأنه قد هدده بالويل والعذاب عند رؤيته مرة أخرى وأخبره بكون ما طلبه جريمة فى حق نفسه قبل ان تكون سبة فى جبين ابنته ونادى " عوض " الذى جاء مسرعا وبإشارة من سيد القصر كان قد كبل صاحبنا وأسقط عليه ما توغر به صدره وإنهال عليه ضربا بالسوط حتى أدمى جسده .. وتركه بعد أن لقنه درسا لن ينساه .. وبعدها ما كان من صاحبنا إلا أن ترك الديار إلى بلد أخرى لا تعرف آلامه عمل فيها حتى بنى نفسه وعاد ميسور الحال بعدما انقضى من عمره عشرين خريفا ، عاد وقد فقد أمه وعمره وطالت به السنين وفاته قطار الزواج ، ولكنها ما زالت تسكن فى قلبه ...

ولعل ما دفعه اليوم للذهاب إلى بيت الذكرى هو استرجاعه ليلة أمس لصورتها التى ما فارقت مخيلته للحظة واحدة وصل لباب القصر وحاول فتحه حتى استطاع بظهره المنحنى وهشاشة جسده وعظامه أن يفتح الباب الذى صدر منه شبه قرقعة وتسلل إلى الداخل فما رأى سوي قصر مهجور منذ زمن نفس اصطفاف الأشجار ولكن بلا ثمار وقصر قد اعتلاه التراب كأنما قد خلا من السكان ظل يتفرس فى كل ركن فيه عله يرى شيئا من بقايا عطر حبيبته لكن بلا جدوى حتى أحس فجأة بصوت أنفاس خلفه ، فإذا به بأحد الأشخاص يلبس جلبابا وعلى رأسه عمة بادره بالسؤال :

- من أنت ..؟

- لقد أتيت فى طلب أهل القصر .

- القصر خالٍ منذ عشرين عاما !!

- وأين عمى " عوض "..؟

- لقد توفيت ابنة صاحب القصر قبيل زفافها ثم تردى حال والدها بعد فقدها حتى فارقت روحه جسده وبعدها بخمس سنوات توفى " عوض " ومن حينها تُرك القصر مهجورا .

- أكل ذاك قد حدث فى تلك السنوات ؟

- هل تعرف أصحاب الدار ؟

- نعم كنت على علاقة طيبة بهم .. هل لك أن تتركنى للحظات وسأخرج من تلقاء نفسي ؟

- لك ما تريد ولكن بلغنى بخروجك حتى أغلق الباب الذى تركته فى الصباح لأروى الحديقة .

- سأبلغك بما طلبت .

وإنصرف الرجل تاركا صاحبنا فى استرجاع ذكرياته والدموع تسيل فى أخاديد وجهه وهناك على طرف القصر كانت الشرفة التى رأى فيها مليكة فؤاده فى مراته العديدة التى جاء بها هنا .. وعلى حين غفلة ظهرت وكاد أن يُجن أهى أم أن الخيال ساق إليه شبحها ..؟ لا إنها هى ببسمتها الجميلة وشعرها الذهبى وعيناها الخضروان تشير

له بأنها آتية لتأخذه إلى القصر ليعيشا معا تهلل وجهه حين رآها مقبلة عليه وانتابته القشعريرة حين لمست يداه واحتضنت الكفوف بعضها وتلامس الجسدان وسرى الحب فى أوصالهما .. ما أجمل اللقاء بعد فراق .. ما أجمل الكلمات بعد صمت دام لسنوات عاش لحظة لا تُحسب من عمره ..

******

تأخر صاحبنا عن الرجل ذو الجلباب فمضى إلى الحديقة كى يخرجه منها فقد آن أوان الغلق والذهاب ولكنه ما وجد إلى جسدا قد إتكأ على الأريكة المواجهة للشرفة وقد مات فيه النبض وإنقطعت أنفاسه فصار جثة هامدة .. عاش للقائها فلم يجدها وماتت من أجل حبه لكنها عاشت فى قلبه.

ما غـــــــــرك ..؟

مد أنفه الدقيق إلى الأرض يشتم فيه الروائح معتمدا على ذلك الأنف فى البحث عن طعامه بين الظلمات وتحت الأرائك وبين حفر الأرض فما وجد شيئا ، لم يخب سعيه ولم تفت الخيبة عضده ولم تنل الصدمة من أسنانه الحادة ، بل ظل يبحث حتى خاب السعى مرة أخرى فأدرك أنه فى بيت أحد الفقراء ، فقفز قفزته التى عدا بعدها متسلقا الحوائط ومنها إلى الأسقف وقذف بجسده الضئيل إلى إحدى الدور المجاورة ، قام بنفس المهام فى البحث عن بقايا خبز وأطعمة من موائد البشر التى كانت فى القديم مما قد حكاه له الأجداد عن معاشرتهم للبشرتملأ الجوف وتزدحم بها الجحور أما الآن فما بقي من البقايا شيء لجوع قد دب في البشر وضيق حل علي معيشتهم ، هو الآن أب لعشرة من الدرصاء يبحث لهم عن طعام ، كلت قدماه من النبش والسعى خلف اللقمة حتى أثابه الله بها فعاد مسرورا إلى جحره ، واستقبلته زوجه على الباب فرحة سعيدة بالظفر بالطعام لصغارها .. ألقى بالطعام فى جوف صغاره البالغون من العمر خمسة عشر يوما وقد تم فطامهم .. جلس إلى زوجته يتناقشان حول مستقبل تلك الأسرة وقد قلّ الزاد وانقطع الأمل فى إيجاد مدخل آخر للرزق خاصة وقد اختاروا لأنفسهم جحرا بين منازل البشر .. أولئك

القاسون الذين ما إن رأوا أحدا من قطيع الفئرأن إلا ولوا مدججين بالعصى خلفه وقل ما ينجو الضئيل أمام ذانك العملاق ..

اتخذوا قرارا أن يهاجروا من تلك الأرض التى ما حملت لهم سوى الإيذاء لا الغذاء ، والضرب قبل الشرب والعذاب والحرمان فضلا عن الحب والإطمئنان وما أن اشتد عود أطفاله حتى شد الرحال متجها إلى الغابة حيث العيش بين الأقران ، فمهما كان العذاب بين أهل جنسه من الحيوانات سيكون لا محالة أهون من معاشرة البشر ومصائدهم وأذاهم له ولبنى جلدته .. فلقد بلغ الاستخفاف بهم حتى استكثروا عليه ومن على شاكلته من الفئران الشهور القلائل التى يعيشونها على وجه البسيطة ، ولقد استبد بهم الفجور حتى جعلوهم أداة لعلومهم حتى صارت الفئران للتجارب ..

تسلل متخفيا هو وأدراصه وفرنبته متجهين إلى الغابات قطعوا المسافات الطوال حتى وصلوا إلى ما يبتغون بعد وعثاء السفر وتعبهم وجوعهم كان عليه أن يؤمن لهم جحرا ، ونقب ها هنا وهنالك حتى لقى مكانا ظنّ أنه الآمن نسبيا ، اجلسهم فى دارهم الجديد وسرى فى نهيز متكتم يخاف المكان لأن الجديد دائما مخيف .. تسلل إلى الحقول والأشجار وعاد فى جولة مظفرة أسعدت الجميع فشبعوا حتى ناموا وما جناه من تلك الرحلة جعل الأمل يحدو به إلى ما بعد الاستقرار فالآن غذاؤه موجود ويحصل عليه بمنتهى السهولة فارتفع سقف أحلامه حتى أنه حلم ببيت لكل درص من أبنائه وأن ينشئ مملكة جديدة يكون هو القائد فيها ، كل تلك الأحلام نبتت فى عقله الدقيق بمجرد أن ظفر فى جولته الأولى ، ما كان يعلم أن للعبة خسائر جمّة ، خرج فى جولته باليوم الثانى فصادف الكثير من الأهوال فتلك حية طاردته حتى كادت أن تلقيه فى برثن الحِمام ، وذاك ثعلب عدا خلفه لولا رحمة الله

وأيكة متشابكة الأغصان إندس داخلها ، وفى الأخير كانت قطة برية تطارده حتى كادت أنفاسه أن تنقطع لولا أن رأى كومة كبيرة بد له أنها شجرة تشبه أوراقها الفرو الكثيف اختبأ داخلها هربا من الهرة وعلى مرمى بصره وهو يختبيء بتلك الشجرة وجد الهرة تعود مسرعة خائفة تساءل فى نفسه ترى ماذا أخافها حتى تعود ؟؟

ربما وجهى مع الفرو قد أخافها إذا هى الطريقة المثلى لإخافة أعدائى أن أقتطع من تلك الشجرة بعض الوبر والشعر وألفهما حول وجهى ليخاف من يطاردنى .. وعزم النية على قطف أوراق الشجرة فما أن أمسك ببعض تلك الأوراق حتى تحركت الشجرة وأخرجت صوت هز أركان الغابة وعلت الشجرة وهو متشبث بتلابيبها وكلت أطرافه عن حمله فسقط ليجد نفسه وجها لوجه أمام ملك الغابة فما كانت الشجرة سوي لبدة الأسد ..!

هربت الدماء من جسده فقد تأكد أنه لا محالة هالك ، فهو الضئيل لا يزيد عن كونه لقمة تافهة فى جوف هذا العملاق والتى قد تنحشر بين أسنانه وضروسه ولا تصل حتى إلى جوفه .. ولكن حدث العجب أن رآه العملاق فتركه يمضى وكأنما استصغر الصيد أو أن معدته قد إمتلأت حتى أن ذاك الحشرة لا يُرى فيه نفعا ولا شبع .

جرى وقدماه لا تحملانه إلى جحره خاوى الوفاض بلا طعام لصغاره وأجلسهم ليحكى ما قد مر به طيلة نهاره الذى ظن أنه لن ينتهى فى دهشة منهم وشرود من قرنبته التى طرأت على رأسها الدقيق فكرة ، أنه ما دام الملك متسامحا وتركك تمضى لم لا تذهب إليه تلتمس منه العمل لديه فإن المكوث إلى جوار الأقوياء يكسبك قوة تجعل الجميع يخافك ، أغراه وأغراها ما وجدوا من الأسد من صفح وسماح مما جعل سقف الطموحات يرتفع حتى يلقون بأنفسهم فى بلاط عرينه .. ناموا ليلتهم بلا عشاء منتظرين جولته الصباحية التى سيحظى بها بالزاد والعتاد والسكينة تحت

قدمى الأسد ، وجاء النهار محمل بكل الأمل فى الوصول إلى مادون قدمى الطاغية ، تقدم الفأر إلى الأسد وكل قطرة تمضى فى عروقه هى للنار أقرب ، أطرافه الهشة ترتعد ياله من رعديد ذاك الذى أغرته زوجته بعرض كهذا ، مضى مرتعش الجسد حتى انتصب واقفا قبالة الملك وحدثه فى رغبته لكن الأسد علا زئيره لا لغضب بل مهددا فأرنا أن يرفع صوته فالصوت ضعيف كالجسد وما أضعف الصوت إلا الجبن من عواقب الصفقة ، ووافق الملك على مضض مستشعرا فى الفأر حنكةً ومكرا قد يستفاد منه فى جرّ الصيد إليه ، لا سيما بعد أن غضبت عليه لبؤته وماعادت تحضر له طعامه مما استوجب اختراع خطة بديلة للنيل من الفرائس خاصة وأن جسده قد إعتاد الخمول ، وقد رأى فى الفأر شجاعة وإقدام ولغة جميلة تدخل القلوب وتلك موهبة لم يعى الفأر نفسه امتلاكه لها ، فكثيرا ما يكون بداخلنا هبات وهدايا ولدت مذ ولدنا لكنها مخبوءة تحت تراب همومنا تنتظر فقط من يزيح عنها الغبار كى تتألق .. مضت الأيام الأولى والفأر يعيش فى كنف الملك حتى جاع فقدم الفأر إليه سائله عما يريد فأخبره الأسد أن البطن تنوح من شدة الجوع فإضرب الأرض بحثا لى عن طعام وقد علم الفأر أن حياته ثمنا لتكاسله عن رد الجميل لصاحب المنة .. فخرج ضاربا أرجاء الغابة حتى وصل إلى قطيع من الغزلان أقرأهم السلام فردوا وتجاذب معهم أطراف الحديث فوجد أن هناك أحدهم قد شذ عن الجماعة وترك الفريق لأنه شعر بنبذ الباقين له ، فجاءه الفار وإقترب منه فما وجده إلا غزالا حزينا يرى الجميع يزجره ويضطهده فقد كان يهوى إحداهن وكانت تهواه إلى أن تم إختيارها زوجا لقائد القطيع وما كان عليه إلا الرضوخ لما قد سنته عليه قوانين الحيوان فهو الحامى وهو القائد وهو الحكيم الذى لديه لكل مشكلة حلا ولكل ضائقة مخرجا فامتثل للأمور غير ان قلبه الذى سكن بين قدميه ما زال يدق بحبها ولا يقبل عنها بديلا فجعل ذلك من أسلوبه جفافا وتمردا .. فأشار إليه الفأر أن

يأخذ الامر بشيء من من العقل والرصانة والتفكير العميق علّه يجدى السبيل ، وبعد طول حوار بينهم أشار الفأر على الظبى أن يتعلم فنون الإدارة والقوة حتى يكون ندا لقائد القطيع ، فماذا يملك القائد أكثر من الظبى نفس القوائم الأربعة والذيل القصير وتساوى السرعة ، وهز الظبي رأسه متسائلا عن الطريق ، فدلّه الفأر أن يستفيد من تجربة الأسد فبالرغم من ضآلة جسده بالمقارنة بغيره من ضخام الحيوانات إلا أنه يتسيد الغابة وأنت أيها المسكين يمكنك أن تكون عظيما إن أردت فالحيوانات جميعهم متساوون إلا من أراد أن يخرج القوة المخبؤة فى جسده وعقله ويحسن إستغلالها للوصول إلى المراد ، واقتنع الظبى بما قال الفأر لكن شيئا ما يثير العديد من التساؤلات ألا وهو ما الضمان للتعلم من الأسد فى حين أنى وجبة حلوة فى نظره ؟

لكن الفأر طمأنه أنه إن جاء حاملا السلام إلى الملك وطالبا منه التعلم والنصيحة فسيفتح له أذرع الترحاب والعطاء كالوردة هو إن أتيته مداعبا شممت ريحه وإن جئته مغتصبا لا تلومن إلا نفسك إن كان الجزاء شوكا يدميك ..

واقتنع الظبى على مضض وسار والفأر إلى عرين الأسد الذى مطّ جسده مسترخيا والذباب يتأرجح على عينيه وأنفه بلا حراك منه أو ردة فعل ، دخل الفأر إليه ملقيا التحية ومقدما فروض الولاء والطاعة وحدثه الفأر حديثا وهو ينظر إلى عيني الظبى كى يعلم إلى أى مدى تقع الكلمات على أذنيه القصيرتين وأخبر الأسد أن الظبي قد جاء ينهل من بحور خبرتكم بعض التعليمات التى تجعل منه شخصا قياديا ، وتنحنح الأسد وبدأ فى شرح الأسس المثلى لبقاءك فى دور الريادة ولإختلاف الطبائع وصلت بعض المعلومات على قلب ظبينا بردا وسلاما وأخرى لم يعى معانيها فقال فى نفسه " كلام أسود " وقبل أن يغادر الظبى زجره الأسد مخبرا إياه أن

الدرس لم ينته ما استمعته اليوم كان تنظيرا أما فى الغد سيكون التدريب الميدانى والعملى ، ولكن أين يبيت ذاك الظبى ؟؟ أكد الأسد على توليه له ورعايته فى كنفه وحمايته حتى الصباح ، لكن الغباء كل الغباء أن يبيت الخشب فى احضان النار ويشعر بالأمان ، بات الظبي مفتوح العينين حتى الصباح كلما شعر بحركة من الأسد هبّ واقفا خشية ان يبيت الليلة بين أحشاء الملك لا فى معيته وحمايته ، والاسد يتضور جوعا ولكنه يرى الصبر مفتاحا للشبع فقد يشعر الظبى بالخطر فينشب حوافره الدقيقة فى الأرض ويطير مرتعبا ولا طاقة للاسد ببراعة الظبي فى القفز مرت ليلتهم بسلام ، وانتظر الظبى الدروس العملية لكن الأسد تعلل بتعبه وإرهاقه وما كان الإرهاق من كدٍ بل بما تضورت به أمعائه واستقر المقام على المبيت مرة أخرى للإستزادة من الخبرات لدى الحاكم ، وكان الليل الذى نام فيه الظبى فى أمان وكان آخر ما شعر به فى حياته فحينما أتى الصباح كان الأسد قد ملأ جوفه وارتخت عضلاته لينام نوما هادئا ، أما الظبى فكانت أعضائه تهشم فى معدة الملك .

ذهب الفأر بعدما عقد الصفقة فقد ساعده الملك فى إرهاب بعض بنى جنسه من القوارض كى يحتال الفأر على ما قد إدخروه ليعود بما نهب لعائلته ، لم يشعر بتأنيب للضمير فقد شغلته صفقته عن مراجعة ضميره فى نهب بنى جنسه .. تمر الايام وحين يجوع الملك يرسل ذاك الدبلوماسي كى يراود الفرائس بذكائه ودهائه لتكون بين لحظة وأخرى لقمة سائغة فى فم الملك وتتعدد السبل والطرق للوصول إلى غاية واحدة بطن الملك وبطن عائلته ، حتى زاد شر الفار وشعر بقيمة أعلى من قيمته فصار جبارا يعامل الجميع بعلو فقد آوى إلى ركن شديد فهو وغيره ممن على شاكلته هم من صنعوا الطواغيت والأوثان ..

ذات يوم شعر الحيوانات بمدى استفحال الخطر الناتج من الراعى والحاشية من الفأر ونظائره الذين يعيشون تحت أقدامه ، فأجمعوا امرهم على القصاص فاجتمعو وتوجهوا ناحية الملك وكان نائما من شبع وعلى طرف قدمه الأمامية نام الفأر مستلقيا على ظهره رافعا أطرافه للسماء مادا ذيله على الأرض ، وإنتهزوا فرصة الغفلة وأنهالوا عليه بضربة حافر واحد فقضوا على الكبير وفر الصغير الذى كاد أن يموت خوفا ووصل إلى جحره واستقبلته فرنبته ماذا بك يارجل؟

.. لقد قتلوا الملك !

لا عليك أنت الآن فى أمان ..

سيعرفونى ويقتلوننى ..

لن يعرفوك فقط لون جسدك بلون مخالف وأخرج إليهم الآن وإنضم للقطيع فسيظنون أنك أحدهم ولن يمسوك بسوء .

ففعل ما أشارت وإنضم للجماهير وابتلع الجماهير الطُعم وظنوا أنه منهم وصار فى لمح البرق محبوبا لديهم بفضل خطاباته الرنانة وكلماته المعسولة وعذب الحديث السائل من فمه ..

وما أن إنتهت الغضبة حتى شعر بضآلته فقد إعتاد أن يجاور الملوك فنقب فى الأرض حتى وجد أسدا آخر فعرض عليه نفس العرض ووافق الأسد وسلم فى جولته الاولى وأصاب صيدا ثمينا هذه المرة فقد أقنع فيلا بأن خرطومه لا يليق بهيئته ولا بد من نزعه من خلال عملية جراحية سيقوم بها الملك الطيب العطوف على شعبه والذى أغرى الفيل أنه ما راى الأسد قط يطارد فريسة لذا فهو يراه من وجهة نظره حنونا وكان ما كان ، وما درى الفأر بتعاقب الفصول فقد ألهته مكاسب

اللعبة عن حساب الزمن وهطلت الامطار وهو يدير الصفقة التالية وأسقطت الأمطار اللون الذى غير به لون جلده ليفتضح أمره للجميع فينهالوا عليه ضربا ودهسا حتى إنتهت حياته .. فى زماننا هذا كثرت الفئران التى تلعق بألسنتها أحذية الحكام حتى ينالوا أمنا زائفا وحياة فى رأيهم مثلى وفى الحقيقة هى للحقارة أقرب ،وحتما ستأتى الأمطار التى ستزيل عنهم أقنعتهم الزائفة ..